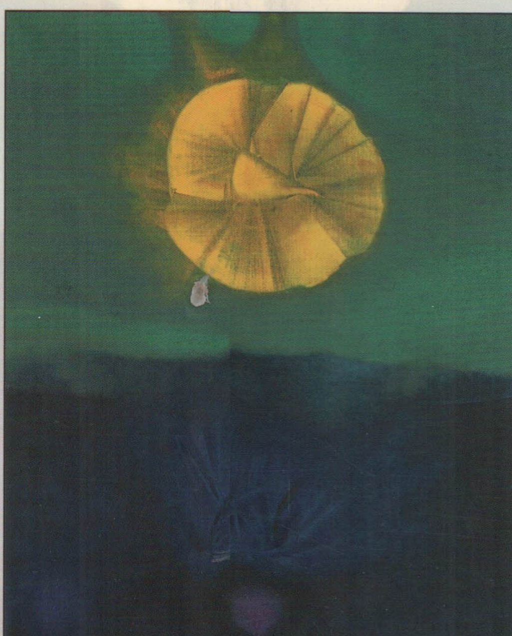
فيكتور هوغو

آخر يوم لمحكوم بالموت



ترجمة: جرجيس فتح اللّه

منشورات الجمل

رواية

فيكتور هوغو: آخر يوم لمحكوم بالموت، رواية

فيكتور هوغو

آخر يوم لمحكوم بالموت

رواية

ترجمة: جرجيس فتح اللّه

منشورات الجمل

فيكتور هوغو: آخر يوم لمحكوم بالموت، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: جرجيس فتح اللّه

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Victor Hugo: *Le Dernier jour d'un condamné*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدمة

إن هذه المأساة المونودرامية[1] التي لا تضاهى لقوّتها وجمالها الأروع، هي من أولى روايات فيكتور هوغو النثرية. إنها ثورة خالدة في وجه عقوبة الموت التي تفرضها قوانين بعض البلاد وهو موضوع كان محبباً إلى قلب المؤلف حتى إنه كان قد كتب إلى جانب هذه الرواية نداءات مؤثرة بليغة أخرى حول إلغاء العقوبة.

بقيت عقوبة الموت عصوراً متعاقبة وهي موضع أخذ وردّ في مختلف حكومات أوروبا. ففي قانون برلماني سُنَّ أيام الملك الإنكليزي هنري الثاني (١١٣٣-١١٨٩) ذُكر أن أكثر من ألفي مجرم أُعدموا الحياة عن جرائم سرقة واختلاس لا غير. بيد أن العدد تناقص في فترة من حكم الملكة إليزابيت الأولى (١٥٣٣-١٦٠٣) إلى الأربعمائة ثم إلى الخمسين فقط في السنة ١٧٦٢. ووجد في فترة من السنة ١٨١٦ ثمانية وخمسون محكوماً بالموت

---

(١) المونودراما: هي الرواية أو التمثيلية التي يقوم بأدوارها كافة شخص واحد (المترجم).

زاد عددهم إلى الأربعة والسبعين ما بين ١٨١٧ و١٨١٨. ثمانون بالمائة منهم صدر هذا الحكم عليهم من جرائم أخرى غير القتل.

ويلاحظ القارئ أننا ركّزنا اهتمامنا بالإحصاءات الإنكليزية وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى أن هذه الدولة ما كانت تضاهيها دولة أخرى بكثرة فرضها عقوبات الموت على جرائم كثيرة فهي أصح مقياس يمكن اتخاذه. ما جاءت سنة ١٨٦١ إلاّ وكانت عقوبة الموت لا تُفرض قانوناً على أكثر من أربع جرائم هي: (١) الخيانة العظمى؛ (٢) القتل؛ (٣) القرصنة مع استخدام العنف والسلاح؛ (٤) تخريب مستودعات الأسلحة وأحواض السفن العائدة للنفع العام.

ومن الجدير بالذكر أن عقوبة الموت في قانوننا البغدادي[٢] تُفرض في أربع حالات كذلك: (١) الخيانة العظمى؛ (٢) القتل العَمد مع سبق الإصرار؛ (٣) التعرض لحياة الملك بقصد الإيذاء أو القتل؛ (٤) بثُّ الآراء الهدامة في أكثر من واحد من أفراد القوة المسلحة.

فهي تمتاز دون سائر القوانين بأنها تعاقب على بعض جرائم الفكر. وتكاد الدول التي ما زالت عقوبة الموت فيها قائمة لا تتعدى فرضها في هذه النواحي والحالات الجرمية، إلا قوانين بعض الولايات المتحدة الجنوبية الأمريكية التي تفرض حكم

---

(٢) في قانون العقوبات العراقي المرقم ١١١ الصادر عام ١٩٦٩ الذي حلَّ محل قانون العقوبات القديم، مع تعديلاته التي أصدرها مجلس قيادة الثورة، نجد أكثر من مائة واثنتي عشرة حالة أو مادة تُعاقب بالإعدام.

الموت على الزنوج الذين يتعرضون جنسياً أو يغتصبون النساء البيضاوات (لم تُفرّق قوانين بعضها بين الزنوج والبيض في هذا المضمار) وفي أوروبا. لأن أكثر من ثلاث عشر ة دولة ألغت عقوبة الموت من سائر قوانينها (وقت السلم طبعاً) أو هي في طريقها إلى الإلغاء. وقد ألغتها جمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية سنة ١٩٤٧ نهائياً.

ثم ارتفعت الأصوات في إنكلترا للمطالبة بإلغاء عقوبة الموت وإليك تطور الفكرة هناك:

في سنة ١٨٦٨ ألغي تنفيذ حكم الموت علناً في بريطانيا وكان الدكتور ولشنغتون قبلها بسنتين قد صرَّح في مجلس العموم بأن «. . . الأثر الذي يخلفه التنفيذ العلني في النفوس هو عكس المراد منه ـ إنه ليفسد ضمير الجمهور إفساداً. وفي رأي لم ينفذ حكم بالموت علناً، إلا وأهدى في الجلاد زبوناً آخر. .».

وفي ١٤ آب من هذه السنة كتبت جريدة التايمز هناك ما يلي: «إننا لا نرجو أن نقرأ في الزمان الآتي كيف التقى في ليلة التنفيذ تحت ظل المشنقة آلاف من أحط أوغاد الإنكليز: من نساء سائبات ورجال شقاة عتاة لقضاء الليلة العتيدة في سكر وعربدة ومجون سافل دنيء. كيف صفروا الجلاد. كيف استقبلوا المحكوم بالهتاف والتهليل. كيف صاروا يرتكبون تحت أقدام المشنقة من الموبقات ما لا يقل شناعة وفظاعة عن الذنب الذي اجتمعوا ليشهدوا تكفير مقترفه عنه. يفعلون ذلك بحرّية عجيبة لا تطالها يد القانون. . .».

وفي أواخر عام ١٩٣٠ أصدرت لجنة التشريع الخاصة في مجلس العموم البريطاني تقريرها عن عقوبة الموت وقد اقتبست الفقرة من القصصي الإنكليزي الخالد تشارلز ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) في تقبيح العقوبة: «يكتنف عقوبة الموت فتنة تجتذب إليها أخيار الناس وأشرارهم على حد سواء بسبب المراسيم والمظاهر المتعلقة بها وبالأشرار الذين تنتظرهم أو توقع بهم هذه المراسيم تثير اهتماماً لا يستطيع مقاومة إغراء أشد الناس عزماً وأمتنهم خلقاً».

وختمت اللجنة كلامها قائلة:

«إن عقوبة الموت لا يمكن تعديلها بعد تنفيذها والحكم غير القابل للتدارك لا يصدره إلا قاض منزّه معصوم من الخطأ وقد يحيق الظلم بالأبرياء وقد توقع بهم عقوبة الموت وليس بالإمكان رتق الشق فالموت لا تدارك له».

وخلصوا إلى النتيجة المحتومة وهي إلغاء عقوبة الموت.

ثم طوي الموضوع في إنكلترا حتى سنة ١٩٤٨ حيث أثير مجدداً في مجلس العموم وصوّت في إحدى الجلسات حوالى ٢٠٠ نائب بإلغاء عقوبة الموت إلغاء مؤقتاً مدة خمسة أعوام على أن مجلس اللوردات خذل التعديل. وعندئذ تقدمت الحكومة باقتراح وسط يقضي بجعل جريمة القتل المعاقب عليها بالموت على درجتين فينفذ حكم الموت على المحكوم بموجب الدرجة الأولى ويؤجل خمس سنوات للمحكوم بموجب الدرجة الثانية. وسارت بريطانيا على ذلك. وظهرت النتائج أو كادت ولا علم لنا

بما انتوته هذه الدولة في شأن عقوبة الموت حتى كتابة هذه السطور[٣].

لما كانت قصتنا المترجمة فرنسية فمن الضروري أن نحيط بتاريخ بروز فكرة إلغاء عقوبة الموت في البلاد التي كتبت القصة لشعبها قبل أي شعب آخر.

من الأهمية بمكان أن نذكر أن ماكسمليان روبسبير (١٧٦٨-١٧٩٤) زعيم الثورة الفرنسية الذي وسموا عهده بالإرهاب لكثرة ما أطاحت المقصلة من رؤوس من وصف بأعداء الجمهورية الفتية آنذاك. كان في العام ١٧٩٠ من أشد المتحمسين لفكرة إلغاء عقوبة الموت.

وفي العام ١٨٣٠ دوى صوت الشاعر المشهور ألفونس دي لامارتين (١٧٩٠-١٨٦٩) في مجلس الشيوخ مراراً منادياً بإلغائها وكاد ينجح في مسعاه، كان ذلك في السنة التي تلت ظهور كتاب هوگو ـ آخر يوم لمحكوم بالموت.

ولقد حصل إيقاف ـ إلغاء ـ أتوماتي في أمر تنفيذ أحكام الموت بفترتين قصيرتين بصورة غير رسمية، أولاهما في عهد مسيو غريڤي (١٨٠٧-١٨٩١) رئيس الجمهورية الفرنسية (١٨٧٩-١٨٨٧) الذي عُرف بشدة مقته لعقوبة الموت فكان الحكم دائماً

(٣) كان ذلك وقت طبع هذه الترجمة لأول مرة وبعدها بأشهر تمّ إلغاء عقوبة الموت نهائياً. أظنها كانت في العام ١٩٥٥ حيث قصر العقوبة على من يقتل شرطياً. لكن القانون عدل بعدها بسنتين فألغيت العقوبة تماماً.

بوصفه رئيس الدولة الأعلى وبدلاً من حصول زيادة ـ أيقن بعضهم أنها طبيعية ـ في جرائم القتل والمحكومين بالموت، وجدوا لدهشتهم حصول نقصان طفيف فيها.

أما خلال الفترة الثانية فلم يحصل ارتفاع في جرائم القتل المعتادة بل في جرائم قتل آحاد الناس من قبل العصابات الإجرامية. ومع ذلك فإن اقتراح الإلغاء خُذِل في الجمعية العمومية بثلاثمائة وثلاثين صوتاً ضد عشرين.

وفي مطلع السبعينيات ألغيت العقوبة في الدانمرك وفنزويلا والنمسا والبرازيل وفي عدد من الولايات في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي أوائل الفترة الأولى من تولي فرانسوا ميتران رئاسة الجمهورية تمّ إلغاء العقوبة نهائياً في فرنسا.

ويشترط الاتحاد الأوروبي على كل عضو فيه أن لا يحتوي قانون عقوباته على حكم بالموت.

مهما قِيل في هذا الموضوع المثير الحيوي فلا يغير من النتيجة وهي أن عقوبة الموت لا محل لها في القرن العشرين وأنها يجب أن تزول من جميع القوانين وشرائع الأمم المتمدنة حيث عرفت قيمة البشر الصحيحة.

إن النتائج التي أوردنا جانباً منها فيما سبق، لا تؤيد أن عقوبة الموت تعطي للمجتمع حماية من القتلة والسفاكين. وإن عشر سنوات من العمل في الحقل القضائي وتتبع الأبحاث الخاصة بعلم الجريمة والقانون تبرر لي القول إنه إذا تأملنا في طبيعة الجريمة

التي تهدي لمرتكبها عقوبة الموت وفكرنا ملياً في الظروف المحيطة بالمجرم أثناء ارتكابها وقبلها، صح لنا القول إن آخر شيء يفكر فيه القاتل قبل البطش بضحيته هو شكل العقاب الذي ينتظره جرّاها. ولي أن أجزم أن فكرة نوعية العقاب لن تخطر على بال القاتل أبداً وقبل أن يحتويه السجن.

فأي فائدة للمجتمع بقيت من عقوبة الموت بعد هجرانه النظرية البائدة في العقاب نظرية «انتقام الهيئة الاجتماعية» وأخذه بالنظرية الحديثة الصحيحة التي ترى في المجرم مريضاً أو شخصاً منحرفاً انحرافاً تجب معالجته.

وما السجن إلا مستشفى لهذا الغرض.

أما مؤلف هذه القصة فهو الروائي العظيم والشاعر الذي قارَع الظلم وحارب البؤس أينما كانا، فقد وُلِد في بيزانسون سنة ١٨٠٢ وتوفي بباريس سنة ١٨٨٢ وكتب قصته هذه ولم يتجاوز السابعة والعشرين فأحدث بها ضجة في طول فرنسا وعرضها وأخذ الناس يفكرون جدّياً بفظاعة عقوبة الموت ومراسيمها الشنعاء.

ما ترجمتنا الكتاب إلا لأجل تكوين رأي عام عراقي ضد هذه العقوبة.

من سيرة مؤلف هذه الرواية

اسمه الكامل فيكتور ماري هوغو (Victor Marie Hugo) (١٨٠٢-١٨٨٥) أحد شوامخ الأدب العالمي والفرنسي الإنساني في كل زمان ومكان. عرفه قُراء العربية بترجمة لروايته أو ملحمته العظمى «البؤساء» Les Miserables المختصر منها والكامل(١). وكذلك عرفوه بترجمة لروايته الشهيرة «أحدب نوتردام» وغيرهما وقد رآهما الملايين أفلاماً سينمائية.

فضلاً عن هذا فهو شاعر مغلق (يقلده بعض الكُتّاب الفرنسيين

---

(١) جرت أول محاولة لترجمة هذه الرواية الضخمة في أوائل الثلاثينيات بقلم الشاعر المصري المعروف حافظ إبراهيم. قِيل إنه كان قليل الإلمام باللغة الفرنسية فكان يستعين بصديقه الشاعر خليل مطران فيترجم له (شفاهاً) فقرات يقوم هو باختصارها ووضعها في قالب عربي موجز. ولم ينقل غير مختصر أو موجز لجزء صغير منها أعطاه عنوان «البؤساء» ونشره في جزءين صغيرين. وأخطأ حافظ إبراهيم لغوياً باتخاذ عنوان (البؤساء) لتعريبه. فكلمة بائس تجمع جمع مذكر سالم لا جمع تكسير وليس في قواميس العربية ما يجيز غير ذلك. فيُقال بائسون وبائسين لا بؤساء فمذكر هذه الأخيرة هو بئيس أيّ الشجاع من البأس! ثم مرت سنوات وفي الستينيات وجدت لها ترجمة عربية كاملة جيدة وأظنها صدرت في لبنان وأبقت على الاسم الخطأ القديم.

الرئاسة في الشعر فقد قرضه وهو في العاشرة من عمره) أحدث تجديداً رومانسياً في الشعر الفرنسي. وحياته ونضاله في سبيل حرية الفكر جعلاه واحداً من الشخصيات الفذة في عالم الفكر العالمي بداع من نزعته الإنسانية وخصومته الشديدة لأعداء الحرية والدكتاتورية التي ألجأته أكثر من مرّة إلى أن يفرض على نفسه النفي الاختياري وترك بلاده مدداً طويلة.

هو الابن الثالث لجوزيف سيغيبرت، الضابط في الجيش العظيم (جيش نابليون كما كان يدعى) وكان برتبة رائد أثناء زواجه. والعائلاة لا تستقر في محل واحد واضطرار ربها إلى التنقل حيث تنتقل وحدته بعيداً عن الأسرة.

دخل معاهد علمية كبرى متعددة. تلقى علومه الأولى في (معهد لويس الكبير = ليسيه لوي لوغران) بباريس ثم انصرف إلى معهد لدراسة الحقوق ولم يكمل دراسته فيه واجتذبه عالم الكتاب وهو يافع وانصرف بالأول إلى الجانب النقدي من الصحافة ونبغ فيه ولمع اسمه ثم نبه صيته شاعراً فأصدر تباعاً عدة دواوين شعرية وامتاز برصانة الأسلوب ودقة اللفظ.

في العام ١٨٢٦ أصدر مجموعته الشعرية الأولى بعنوان «قصائد وأغان» Odes et Ballades ثم أشفعها عام ١٨٣١ بمجموعة شعرية ثانية عنوانها «أوراق الخريف» Les Feuilles d'Automne وديوان آخر في ١٨٨٥ عنوانه «أغاني الشفق» Les Chants du Crepuscule، ولا سيما ديوانه الشهير «العقوبات» Les Chatiments عام ١٨٥٣، فضلاً عن ديوان

يتضمن أرق قصائد عنوانه «إلى آديل» A Adèle وهي ابنته. ثم عالج القصة والرواية فأصدر أولاها وهي بوغ جارغال ١٨٢٦ وأصدر تمثيليات لم ينجح بعضها ولاقى بعضها نجاحاً كبيراً، من هذه الناجحات تمثيلية «هرناني» إلا أن تمثيليته «أوليفر كرمويل» لم تكن قابلة للتمثيل لطولها.

العام ١٨٣٠ كان عاماً فاصلاً في حياة فيكتور هوغو حيث اتخذ المذهب الليبرالي اتجاهاً فكرياً ولم يحد عنه طوال حياته ودوّن رواياته الشهيرة وطبعها بطابع عالمي، وفي الأربعينيات ثبت اسم الكاتب علماً من أعلام الأدب الفرنسي.

الرواية، بل المذكرات التي نقدمها للقارئ الآن هي على ما قِيل أولى تجاربه في هذا الفن أو ثانيها، وقيل إنه ألّفها في العام ١٨٢٦ خلال أربع وعشرين ساعة بناءً على رهان! وقد لاقت نجاحاً عظيماً لم يكن كاتبها يتوقعها لها. وشجعه ذلك فكتب روايته «أحدب نوتردام» (Notre-Dame de Paris) وغيرها.

تصدى لحكم شارل العاشر البوربوني الأوتوقراطي عندما جوبه بالقيود التي فرضها هذا الملك على الصحف والصحافة.

وفي العام ١٨٤١ انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية ولم يتجاوز التاسعة والثلاثين، وفي العام ١٨١٣ فجع بوفاة ابنته الفضلى ليوبولدين غرقاً وأثّر حزنه الشديد عليها تأثيراً عظيماً على إبداعه الفكري وانتابته فترة وجوم.

ثم جرفته الأحداث الكبرى في فرنسا وقربته كثيراً من مشاعر

الجمهور ومطالبه الشعبية. وعلى أثر إصداره ديوانه الشعري «العقوبات» وتصديه لدكتاتورية نابوليون الثالث عشية إعلان نفسه إمبراطوراً، أدرك أنه مستهدف ونصح بمغادرة البلاد ففرض على نفسه النفي وترك فرنسا واستقر في بروكسل أولاً ثم انتقل إلى جرسي ومنها إلى كرنس. وفي المنفى كتب روايته الخالدة «البؤساء» (١٨٦٢). ثم أشفعها عام ١٨٦٦ برواية رائعة عنوانها «جوابو البحار» (Les Travailleurs de la Mer) (لم تترجم إلى العربية) ونشر كثيراً من القصائد السياسية.

وفي العام ١٨٧٠ بعد سقوط نابوليون الثالث عاد إلى باريس من منفاه الاختياري. إلا أنه اختلف مع (كومونه باريس) بعد حرب السبعين واضطر إلى مغادرة فرنسا ثانية. ثم عاد إليها بعد قيام الجمهورية الثالثة في أواخر أيام حياته فاحتُفي به بوصفه واحداً من الكُتّاب العظام ونصراء النظام الجمهوري. ودفن في البانثيون (مقبرة العظماء).

١

بيستر BICETRE

محكوم بالموت!

خمسة أسابيع وأنا أحيا بهذه الفكرة، وحيداً معها، جامد الدم بحضورها، رازحاً تحت عبئها!

في الأيام الماضية ـ التي بدت لي الآن كسنين أكثر منها كأسابيع ـ كنت رجلاً كالرجال. كان كل يوم كل ساعة بل كل دقيقة مليء بالحياة وكانت مخيلتي الخصبة الفتية مفعمة بالآمال. يلذّني طيها ونشرها واحداً تلو الآخر بلا توقف ولا انتهاء. ثم أعود لأرى النسج الخشن الذي حيكت منه الحياة. كانت تلك الأخيلة تتوالى دؤوبة كالزخارف العربية بانسجام واتساق لا نهاية له فثمَّ فتيات يافعات يليهن أساقفة بطيالسهم الكنسية الفاخرة ثم المعارك الحربية المظفرة إلى مسارح مملوءة حياةً وضياءً ثم فتيات يافعات مرة أخرى ثم نزهات خلوية في ظلام الليل الأسحم تحت غصون أشجار الكستنا المنداحة. كانت أخيلتي ترسم لي أعياداً باستمرار. كنت قادراً على التفكير في كل ما يسرني لأني كنت حراً.

أما الآن فأنا أسير. وجسدي مقيد بالسلاسل ملقى في جب مظلم. وفكري مكبل بخاطرة واحدة. خاطرة دموية فظيعة قاسية! فكرة واحدة تلازمني. عقيدة واحدة. حقيقة واحدة.

محكوم بالموت!

مهما عملت، فهذه الفكرة المخيفة معي دائماً كشبح واحد يلازم شخصي شديد الحسد لي يطرد عني كل الأفكار الأخرى، إنه يقف وجهاً لوجه أمام نفسي التاعسة. يَرْهزُني بيديه المثلوجتين كلما هممت بإدارة رأسي أو إغماض عينيّ. إنه لينصب فخاً في كل ممر أو منفذ تريد نفسي الالتجاء إليه. ويخفر كل كلمة أسمعها كحارس ثقيل الظل. إنه يلازم قضبان سجني البشعة. يلاحقني في اليقظة. يتجسس عليَّ في نومي المضطرب. يزحف موغلاً في أحلامي بشكل خنجر مرهف النصل.

ها أنا ذا الآن أستيقظ من نومي مذعوراً وهو يلاحقني فأهتف:

ـ آه! إنه كابوس مخيف ليس إلاّ.

ولكن ما أكاد أفتح عينيَّ المثقلتين بالنعاس نصف فتحة إلاّ لأرى الحقيقة المقدرة عليَّ، مسطورة في الواقع المرعب الذي يكتنفني على أرضية محبسي الرطبة المعتمة، من خلال النور الشاحب لمصباحي الليلي. في نسيج ثيابي الخشن. في وجه السجّان العبوس الذي تلمع جعبة رصاصه من خلال قضبان النافذة.

يبدو لي أن صوتاً همس في أذني:

ـ محكوم بالموت!

٢

كان صبح يوم من أيام آب الجميلة وقد مرّت ثلاثة أيام على بدء محاكمتي، لثلاثة أيام بقي اسمي وجريمتي يجتذبان جمهوراً كبيراً من النظارة الذين دأبوا على تخاطف المقاعد العمومية في قاعة المحكمة كالغربان المجتمعة على جيفة. ثلاثة أيام، ومشاهد «الأرجواز» هذه المؤلفة من ممثليها القضاة والشهود والمحامين وممثلي الادعاء العام، تمرّ وتعود تمرّ أمامي بأشكال دموية حيناً وبمظهر عدائي حيناً لكنها عابسة مكفهرّة مرعبة دائماً. لم أستطع النوم أولى الليلتين بسبب القلق والرهبة لكن في الليلة الثالثة ـ سقطت كالصخرة نائماً من فرط التعب الفكري والجسدي. تركت هيئة المحلفين في منتصف الليل تقلّب وجوه الرأي في مصيري بعد أن أعادوني إلى فراش القش في محبسي الحقير حيث غططت في نوم عميق. نوم النسيان: كانت هذه أولى ساعات راحة بعد أيام عديدة.

كنت مستغرقاً في نومي العميق عندما أقبلوا وأيقظوني، لم يكن صوت الحدوة الحديدية في حذاء السجان، ولا خشخشة حزمة مفاتيحه، ولا صرير لسان القفل الخشن بكافية لإيقاظي.

فكان صوته الغليظ في أذني ويده الثقيلة على كتفي شيئاً ضرورياً، ابتدرني بقوله:

ـ هيا قم!

فتحت عيني وجلست مشدوهاً مرتبكاً. في تلك اللحظة سقط عليَّ من نافذة سجني العالية الضيقة عبر سقف الدهليز المجاور لشعاع النور الوحيد الذي تسنى لي رؤيته منذ أمد طويل الانعكاس الأصفر الذي ما كان أسهل على الأعين المعتادة ظلام السجن أن ترى فيه الشمس. إني أحب الشمس.

قلت للسجان:

ـ ما أجمل اليوم!

تلكأ في الجواب. كأنما يشك في هل يستأهل الموقف تبديد كلمة؟

ثم تمتم بخشونة بعد مجهود:

ـ محتمل جداً.

بقيت بلا حراك. ودماغي نصف نائم لكن شفتيّ تبتسمان وعينيّ شاخصتان إلى ذلك الانعكاس الذهبي الباهت الذي ينير السقف.

أعدت القول:

ـ ما أجمل اليوم!

أجاب السجان: «نعم» ثم أضاف: إنهم «بانتظارك».

كانت هذه الكلمات القليلة أشبه بالخيط الذي يحول دون فرار حشرة.

أعادني بعنف إلى عالم الواقع ووجدت نفسي بأسرع من وميض البرق في قاعة محكمة الجنايات المُقبضة بما فيها المنصة نصف الدائرية كحدوة الحصان يحتلها القُضاة وهم متزملون بجببهم الحمراء القرمزية. وصفوف الشهود الثلاثة بأوجههم المتبلّدة والحارسان وقد احتل كل واحد منهما إحدى نهايتي مقعدي. والأردية السوداء الفضفاضة وبحر من رؤوس الجموع المحتشدة المشرئبة بأعناقها بآخر القاعة في الظل: وهي ترمقني بالنظر الشزر وتخزرني بالعيون الثاقبة. ثم للنظرة الثاقبة لأعضاء هيئة المحلفين الاثني عشر الذين ظلوا ساهرين بينما كنت مستغرقاً في النوم!

انتصبت على رجليّ. وأسناني تصطك ويداي ترتعشان وركبتاي ترتعدان ما كنت لأتبين ردائي، كَبَوْتُ عند أول خطوة كمن ينوء بحمل ثقيل. لكني تبعت السجان.

كان الحارسان في انتظاري عند باب محبسي فوضعا القيد في معصمي وكان فيه قفل صغير قفلاه على يدي بدقة وإحكام فتركتهما يفعلان ذلك كأنهما آلة يشتغلان على آلة.

اجتزنا الفناء الداخلي فأنعشني نسيم الصباح النقي ورفعت رأسي إلى أعلى. كانت السماء زرقاء وقد رسمت أشعة الشمس الدافئة التي تعترضها المداخن العالية زوايا واسعة من الضياء على جدران السجن الصماء. فكان يوماً جميلاً والحق يُقال.

ارتقينا الدرج الحلزوني وقطعنا دهليزاً ثم آخر ثم آخر ثم وصلنا إلى باب منخفض مفتوح فهبَّت عليَّ ريح ثقيلة تحمل همهمة متداخلة لأصوات عديدة هي أصوات الجمع الحاشد في محكمة الجنايات. ثم دخلت.

ما إن بدا جسمي حتى سَرَتْ أصوات احتكاك الأذرع وهمهمة أصوات وأخذت المقاعد تتحرك فجأة إلى الوراء وزيّقت ألواح الخشب. وفي الوقت الذي كنت أقطع الغرفة الطويلة سائراً بين كتلتين من البشر وحارسين كل منهما إلى جانب مني، ظهر لي أني محور شُدت إليه جميع الخيوط التي جعلت هذه الوجوه الذاهلة المشوقة تتحرك. وفي تلك اللحظة أحسست أن القيد لم يعد في يدي بيد أني لم أذكر أين رُفع ومتى.

ساد سكون عظيم في القاعة. وقد بلغت مكاني. وفي تلك اللحظة سكنت أصوات الجمع الحاشد ومعه انقطعت سلسلة أفكاري التائهة الشريدة وعلى حين غرة أدركت بوضوح ما ظل غامضاً عليَّ حتى الساعة وهي أن اللحظة الحاسمة قد أزفت وما جيء بي إلى هذا المكان إلاّ لسماع قرار الحكم عليَّ.

فَسِّرها إن استطعت! إن الطريقة التي أخطرتني بهذه الفكرة لم تسبب لي خوفاً ما. كانت النوافذ مفتوحة وهواء المدينة وضجيجها يندفعان من الخارج على رسلهما والقاعة مضاءة كأنما أعدت لعرسٍ وأشعة الشمس البهيجة تتخذ هنا وهناك أشكال صلبان مضيئة حيناً فوق المناضد وحيناً على الأرض وتتكسر حيناً عند

زوايا الجدران وقد امتد شعاع شمس من خلال ألواح الزجاج مخترقاً منشوراً عظيماً من دقائق الغبار الذهبية.

جلس القضاة في النهاية القصوى من القاعة وقد ظهرت عليهم أمارات الراحة. ربما لأنهم قد أمضوا قرارهم. وبدا على وجه رئيس المحكمة المنوَّر بمسحة طفيفة من انعكاس نور الشمس على النافذة سيماء الهدوء والوداعة. وثمَّ محام في مقتبل العمر يسوّي ربطة عنقه ويحادث ببهجة وحرارة امرأة جميلة ذات قبعة حمراء كانت قد جلست خلفه دلالة على التكريم ـ بموجب إذن خاص.

كان المحلفون الأشخاص الوحيدين الذين بدت أوجههم صفراء ناحلة عبوسة وهذا مردُّهُ في الظاهر إلى الإعياء والكلال اللذين أصاباهم بعد أن سهروا الليل بطوله فكان فريق منهم يتثاءب وليس ثمَّ على سيمائهم الوديعة ما ينمُّ بأنهم فرغوا الآن من إصدار حكم بالموت. لم أكن أتبين على أوجه هؤلاء المواطنين إلاّ شوقاً لا يُحدُّ إلى النوم.

كان يقابلني شباك مفتوح على مصراعيه فاستطعت أن أسمع من الشارع خارجاً ـ ضحكات بائعات الورد. لمّا يزل على دكة النافذة نبتة صغيرة الجرم صفراء جميلة تسبح في أشعة الشمس وتسفّها الريح فتظل تحني رأسها لصدع في البناء الحجري.

كيف يمكن لأمر مشؤوم أن يقطع سلسلة مشاعر مبهجة كهذه؟ لقد خُيِّل لي وأنا سابح في أشعة الشمس والهواء النقي أنه من المستحيل عليَّ أن أفكِّر في شيء خلا الحرية. انبثق في قلبي

ينبوع الأمل كما احتضنتني آيات يومي وروائعه من كل جانب. فصرت أنتظر الحكم على انتظاري الحرية والحياة.

أخيراً وصل محاميَّ وكانوا في انتظاره، لقد فرغ من تناول فطور جيد بشهية عظيمة. اتخذ مكانه وانحنى عليَّ وقال لي باسماً:

ـ إني شديد الأمل.

فأجبته بطلاقة باسماً:

ـ وأنا أيضاً.

فاستتلى:

ـ الحق أني لا أعرف شيئاً عن قرارهم حتى الساعة لكنهم لا شك استبعدوا منه عامل سبق الإصرار. ولذلك فالحكم عليك لن يكون بأكثر من الأشغال الشاقة المؤبدة. ماذا تقول يا سيدي؟

فأجبت مبغوتاً:

ـ ماذا تعني يا سيدي؟ إني أفضّل الموت مائة مرة. أجل الموت!

فضلاً عن ذلك فقد همس صوت في داخلي «ماذا أخسر لو قلت هذا؟» ألفظُ من قبيل حكم بالموت في منتصف الليل على ضوء الشموع في قاعة معتمة جهمة وليلة شتاء قريرة مطيرة؟ من المستحيل أن يكون في شهر آب في الساعة الثامنة صباحاً في يوم جميل كهذا مع هؤلاء المحلفين الأخيار؟ مستحيل! ووقعت أنظاري على الزهرة الجميلة الصفراء التي تلاعب أشعة الشمس.

أمرني بالوقوف رئيس المحكمة ـ الذي لم يكن قد أخّره إلاّ غياب محاميّ ـ فرفع الجنديان ساعدي إلى أعلى بحركة خاطفة. ومثلما تسري شحنة الكهرباء في البدن، نهض كل مَن في القاعة. ووقف شخص قميء ينم مظهره عن خمول ذكره كان يشغل فسحة من المنضدة الموضوعة تحت مجلس القضاء ـ هو على ما أظن كاتب ضبط المحكمة ـ وبدأ يقرأ حكم هيئة المحلفين. أخذ العرق البارد يتصبب مني واستندت إلى الحائط لئلا أسقط.

قال الرئيس مستفهماً:

ـ هل لمحامي الدفاع من أسباب تمنع هذه المحكمة من إصدار الحكم؟

كان لدي أنا شخصياً الكثير مما أريد قوله لكن لم يخرج من فمي شيء والتصق لياني بسقف حلقي ونهض محامي الدفاع.

كل ما فهمت أنه حاول الفوز بتخفيف حكم هيئة المحلفين باستبدال العقوبة التي تَستتبع الحكم المذكور بالأخرى التي جعلتني أحنق حين اقترحها. لا ريب أن السخط من المشاعر ذات القوى العظيمة بحيث كفل لنفسه الغلبة التامة على جميع المشاعر الأخرى التي كانت تصطرع في دماغي، فكنت أريد ترديد العبارة التي سبق أن قلتها له «الموت مائة مرة ولا هذا». بيد أن النطق خانني ولم أستطع إلاّ أن أوقفه في الحال بلكزة من ذراعي هاتفاً بقوة هزت كياني:

ـ كلا!

بدأ المدعي العام يردّ على محاميَّ مسفهاً رأيه، وكنت أصغي إلى المناقشة براحة ورضى لا معنى لهما وبعد ذلك نهض القضاة وانسحبوا إلى خلوة. وما عتموا أن عادوا وقرأ الرئيس الحكم عليَّ. فهتف الجمهور:

ـ حُكِم عليه بالموت!

وبينما كنت أُساق إلى السجن اندفعت الجماهير خلفي بضجيج وصخب هائل كبناء يهوي من حالق.

سرتُ متخدراً مصعوقاً. بدأ تغير يطرأ على باطني. كنت أشعر حتى صدور الحكم عليَّ بالموت بوجيب قلبي وبأنفاسي تتصاعد وبأني أحيا كسائر البشر، أما الآن فأرى بكل وضوح أن سداً أُقيم بيني وبين العالم وأن الأشياء لم تعد الآن تبدو لي كما بدت قبلاً.

هذه النوافذ المنيرة العظيمة. هذه الشمس الرائعة. هذه السماء الصافية. تلك الزهرة الظريفة. كلها انقلبت بيضاء مقبضة كالكفن. هذا الجمع من الرجال والنسوة والأطفال الذين يتزاحمون حواليّ. إني لأنظرهم كما لو كانوا أشباحاً.

في نهاية الدرج كانت تنتظرني عربة سوداء قذرة محكمة القضبان. وفي اللحظة التي كنت أدخلها حانت مني التفاتة إلى الميدان من غير قصد فسمعت عابري السبيل يهتفون وهم مقبلون على العربة:

ـ محكوم بالموت!

ومن خلال الغيوم التي بدت كأنها حاجز بيني وبين هذه الأشياء المحيطة بي استرعت انتباهي فتاتان كانتا تتبعانني بأعين مستطلعة مشدوهة. قالت صغراهما وهي تصفق:

ـ عظيم! سيتم الأمر خلال ستة أسابيع!

٣

محكوم بالموت!

ولِمَ لا؟ فالناس ـ كما أذكر أني قرأته في كتاب ما لا يحوي شيئاً جيداً غيره ـ الناس كلهم محكومون بالموت. فما الذي تغيّر من وضعي إذن؟ ترى كم شخص وافته المنية وكان يتوقع أجلاً طويلاً مرسوماً معيناً؟ كم عدد أولئك الذين ذهبوا قبلي وكانوا يتطلعون إلى اليوم الذي سيسقط فيه رأسي على بلاط ساحة «غريف»[1] منذ أن لُفظ الحكم عليَّ وهم شبان أصحاء أحرار؟ كم منهم سيموت اعتباراً من هذه الساعة وهم الآن أحياء يرزقون؟ يستنشقون الهواء المعطر. يدخلون ويخرجون بملء الحرية.

ثم لماذا أريد أن أبقى حياً؟ حقاً إن هذا اليوم النحس وخبز السجن الأسود والحساء الرقيق المجلوب بجفنات المحكومين. المعاملة الخشنة (أنا الذي صقلتني الثقافة وبراني التهذيب) المعاملة الوحشية التي تضعني خاضعاً لأوامر السجانين ومغاليقهم غير واجد

---

(١) إن الساحة الواقعة أمام «أوتيل دي فيل» في باريس المعروفة باسم گريف هي الساحة الخاصة بنصب المقصلة لتنفيذ أحكام الموت على المدانين منذ سنة ١٨٠٦ فصاعداً. (المترجم).

بشراً واحداً يراني قميناً بكلمة واحدة. بشراً أستطيع محادثته مرتعداً من كل ما اجترحته وما سيجترحه غيري. هذا هو كل ما في وسع الجلاد أن ينتزعه مني من النعم. آه. ومع ذلك فالأمر فظيع!

٤

أقلّتني «ماريا[٢] السوداء» إلى سجن «بيستر» المخيف.

كان الصرح بناءً جميلاً فخماً إذا أرسلت الطرف إليه من بعيد. فقد انتصب قائماً في وجه الأفق على سفح تل وامتد إلى مسافة طويلة. لقد أبقى الدهر على شيء من روعته وجلاله الغابر أيام كان في وقت ما مسكناً للملك. لكن ما إن تدنو منه حتى تجد ذلك القصر عبارة عن خرائب وأطلال تجرح شعورك وتكون كمثل القذى في عينك. إن العار والبلى يشفّان من واجهات هذا الصرح الملوكية حتى ليخيل للمرء أن حيطانه قد ابتُليت بداء البرص. لم يكن ثمَّ شبابيك على نوافذه ولا زجاج في الشبابيك. فقد قامت محلهما قضبان حديدية متشابكة يلوح منها بين الفينة والفينة وجه محكوم أو مجنون شاحب معروق.

ذلكم هو وجه للحياة جديد.

---

(٢) ماريا السوداء: كناية عن المركبة التي تقل المحكومين بالموت إلى سجنهم الأخير وهي سوداء اللون. (المترجم).

٥

ما كدت أصل السجن حتى كُبِّلتُ بالحديد وضوعفت الاحتياطات على جسمي. فلم يعد يُسمح لي بتناول وجبات طعامي بالشوكة والسكين ثم أُلبست «حِناكاً»[٣] كتانياً ـ وهو رداء خاص شبيه بالغرارة يشلُّ حركة الأيدي. إنهم مسؤولون عن سلامتي. استأنفت قرار الحكم طالباً نقضه فكان والحالة هذه أن تمتد مسؤولية صيانتي ـ هذه المسؤولية الثقيلة ـ ستة أسابيع أو سبعة فمن الضروري جداً إيصالي إلى ساحة (غريف) سليماً معافى.

عاملوني في الأيام الأولى معاملةً رقيقة وجدت فيها طعم العلقم. فحفاوة السجّان ورعايته ورسمياته تفوح منها رائحة المقصلة ولحسن الحظ ما لبثت أن تغلبت الحياة الرتيبة المعتادة وتسلمت المبادأة، فاختلطت بعد بضعة أيام مع المحكومين

---

(٣) الحِناك (بكسر الحاء) آلة تعذيب: تقمط على اليدين أو على اليدين والعنق وقد تكون من خشب وقد تكون من قماش وتستعمل الآن في بلاد المملكة العربية السعودية في ربط وشل يدي المحكوم بالموت (يُنفذ هناك بجَلد الرقبة بالسيف) (المترجم).

وصرت أعامل بالوحشية والفظاظة المعهودة ولم يعد أثر ما لذلك التأدب الاستثنائي الذي كان يأتي بالجلاد أمامي. ولم يكن هذا التحسن الأوحد الذي طرأ على حالتي. فشبابي الغضّ وطاعتي لأنظمة السجن واهتمام راعي كنيسة السجن بأمري فضلاً عن بضع كلمات لاتينية نطقتها أمام رئيس السجانين ـ لم يفهمها ـ أكسبتني رياضة السير مرة واحدة كل أسبوع مع غيري من السجناء من دون هذا «الحِناك» الذي كان يشلُّ حركتي تماماً. وأُعطيت بعد طول تردد حبراً وورقاً وأقلاماً ومسرجة.

وسُمح لي في كل يوم أحد بعد (القداس) مباشرة بالخروج إلى باحة السجن في ساعة النزهة. هناك كنت أتكلم مع السجناء وهذا طبيعي ولا مناص منه وهم بعد ـ أناسٌ فيهم دماثة طبع... المساكين التاعسون! كانوا يقصّون عليَّ وقائع جرائمهم التي لا يسع المرء إلاّ أن يستفظعها لكنني أعرف أنهم يفاخرون بها. اطمأنوا إليَّ فصاروا يعلمونني التكلم بالعامية التي يشيرون إليها (بوميض السندان). هذه اللغة نبتت من اللغة العامة الفصحى كثؤلول دُمَّلي أو خُراج كريه. على أنها أحياناً مؤثرة بشكل غريب. فنية إلى درجة مرعبة فمثلاً يقولون (هناك بعض مصير في الوعاء) ومعناه (يوجد دم في الطريق). ويقولون (الزواج من الأرملة) يقصدون عملية «الشنق» كأنما حبل الجلاد هو أرملة كل مشنوق. أما رأس اللص فله اسمان: هو (السوربون) عندما يدبر الخطط وينظم خيوط الجريمة. وهو جزع (الخشب) عندما يجتزّه الجلاّد. وتجد في اللغة أحياناً رشاقة الشعر وجمال استعارته كقولهم:

(كشمير محبوك) ومعناه «سلة لاقط الخرق» وقولهم (الكذاب) كناية عن «اللسان» ويُشتق في كل مكان وزمان كلمات غريبة غامضة خشنة لا يدري المرء من أين نُحتت ومتى دخلت اللغة كقولهم (تول) ويقصدون «الجلاد» وقولهم (اللافتة) أي «محل التنفيذ». ويستعملون كلمتي (عناكب وضفادع) أيضاً. من هذه اللغة التي يلوكها اللسان لا يسع المرء إلاّ أن يفكر في شيء قذر مغبرّ أو في ربطة من الخرق البالية تُنفض في وجهك. لكن هؤلاء الناس كانوا على الأقل يعطفون عليَّ وهم الوحيدون في هذا الصنيع. ولن أكنّ للسجانين والحُفّاظ والحراس غير المقت فهم يتكلمون عني ويضحكون عليَّ ويقلبون وجوه الرأي فيَّ أمام عينيَّ هاتين كأني مَتاع من الأمتعة.

٦

قلت لنفسي:

ـ ما دمت أملك أدوات الكتابة فلِمَ لا أكتب؟ لكن ماذا أكتب؟ أنا السجين بين جدران صماء حجرية عارية باردة ليس فيها مجال للسير، ليس ثمَّ آفاق تجول فيها عيناي! إن الوسيلة الوحيدة لتمضية أوقاتي هي إشغال نفسي آلياً طول يومي متلهياً بمراقبة الحركة البطيئة للمربع الباهت الذي نشره ثقب المفتاح على الحائط المقابل وأنا وحيد كما سبق القول، تلازمني فكرة واحدة: فكرة الجريمة والعقاب، فكرة القتل والموت. أهنالك ما يجدر بي قوله أنا الذي نفض يده من كل شيء في هذه الحياة؟ وما الذي سأجده في دماغي هذا الخالي وليس فيه ما يستأهل التدوين؟ لكن لِمَ لا؟ إن كان كل ما يحيط بي مملاً مقبضاً، أفلا يوجد في أحشائي عاصفة، نضال، مأساة؟ هذه الفكرة التي استحوذت عليَّ ولازمتني تأتيني في كل ساعة بل في كل لحظة بزي جديد يعظم بشاعةً ودمويةً كلما مرَّ بنا الوقت. لِمَ لا أحاول التعبير عما يعتمل في نفسي من كل ما هو غريب مخيف وأنا في وحدتي هذه؟ الحق أن الميدان واسع للكلام والوصف. ومهما تكن حياتي قصيرة فما زال

في الكرب، في الرعب، في العذاب الذي يملأ جوانب ساعاتي الأخيرة ـ الكفاية لاستخدام هذا القلم وإعمال هذا الحبر. وفضلاً عن ذلك فالطريقة الوحيدة لتخفيف حدة الآلام هو درسها وتدوينها وهذا ما سيجعلني أسلوها. وقد لا يذهب ما أكتبه هدراً، ما أكتبه من صحائف عذابي ـ ساعة بعد ساعة. دقيقة تلو دقيقة شِدّة أثر شدة لو ملكت القوة في الاستمرار على كتابتها حتى لا يعود بإمكاني جثمانياً مواصلتها. أفلا تحمل هذه القصة «التي ستظل بحكم الطبيعة ناقصة وإن كانت كاملة قدر الإمكان»(٤). قصة مشاعري ـ درساً جليلاً وعبرة عميقة... أليس يوجد في مدوّنات الأفكار الأخيرة هذه إلى في وسط الحزن المتنامي المستمر فوق المشرحة الذهنية لمحكوم بالموت، ألا يوجد في هذا كله أكثر من درس واحد لأولئك الذين يُصدرون أحكام الموت!

مَن يدري! ربما جعلت قصتي أيديهم تتباطأ عندما تنهض في المستقبل مسألة طرح رأس بشر مفكر... رأس إنسان! فيما يسمونه كفة ميزان العدالة. وقد لا يفكر أولئك في الاسترسال البطيء للعذاب الكامن في الصيغة الشكلية لحكم الموت والمظاهر التي تحفُّ به. ألم يقفوا مرة ليفكروا في هذا الخاطر الأليم وهو أن في الرأس الذي يجتزونه دماغاً، دماغاً متعطشاً للحياة، روحاً تنفر من استقبال الموت؟ لا لا إنهم ـ في كل هذا ـ لا يرون إلاّ سقوطاً عمودياً لسكين مثلثة الشفرة. كل ما يفكرون فيه أن

---

(٤) لأنه سيموت دون إكمالها. (المترجم).

المحكوم بالموت مفلس من البداية إلى النهاية. وهذه الصحائف إنها لن تغشّهم ولن تخدعهم. وقد تُطبع في أحد الأيام فتجعل ضمائر هؤلاء الرجال تتفكر بضع دقائق في معنى العذاب الفكري. فهي أمور ما خطرت لهم من قبل. إنهم يعظمون في أنفسهم قوتهم القادرة على القتل بدون ألم يلحق الجسم. لا بأس ربما كان الأمر كذلك لكن ما قيمة العذاب الجسماني إذا قيس بالعذاب الوجداني؟ كالبغض والحب. لِمَ بنيت الشرائع بهذه الفظاعة؟ سيأتي ذلك اليوم وربما قدر الاعترافات الأخيرة التي كتبها شقي عاثر الحظ أن تسرع به إلي.

... إلاّ إذا أطارت الريح ـ بُعيد موتي ـ هذه القصاصات في الفضاء وهي مثقلة بالوحل ممدورة بالمطر وحملتها بعيداً وألصقتها كالنجوم على لوح زجاج النافذة المكسور في غرفة السجّان.

٧

هل قُدِّرَ لما أكتبه هنا أن يكون في أحد الأيام ذا فائدة للآخرين هل سيمنع القاضي من إصدار أحكام الموت فيكون له فضل إنقاذ الشقاة البائسين ـ أبرياء كانوا أم مجرمين ـ من غصص الآلام التي أتجرعها الآن. لكن لماذا؟ علامَ؟ ما الغاية؟ ماذا يهمني لو جلدوا رؤوس الآخرين بعد جلد رأسي أنا؟ أيمكنني حقاً التفكير في مثل هذه التوافه؟ لنفرض أنهم حطموا منصة المقصلة بعد أن ارتقيتها أنا . . . فماذا يعود عليَّ هذا من فائدة؟ إني لأسألك فأجب.

أواه. الشمس. الربيع. الحقول الموردة. الطيور وهي توقظ الفجر. الغيوم. الطبيعة. الحرية. الحياة. . . هل نفضت يديّ منها؟

آه إنها نفسي التي يتحتم إنقاذها. أصحيح أن هذا مستحيل. وأن موتي مفروغ منه وسيتم غداً صباحاً أو ربما اليوم! هذا صحيح؟ آه يا إلهي. يا لها من فكرة مخيفة هذه تخرج من دماغي لتصطدم بجدران السجن.

٨

ألا فلأحسب الوقت الباقي لي.

أُعطيت بعد نطق الحكم ثلاثة أيام لرفع الاستئناف، وهذا الطلب يُرسل إلى الوزير بعد أن يُترك منسياً في محكمة الجنايات زهاء ثمانية أيام فيمكث في دائرة الوزير متأخراً لدى الموظف المختص زهاء أسبوعين وهذا لا يعرف قطعاً بوجوده عنده. ثم يُرسل بعد فحصه إلى محكمة النقض والإبرام فيُضم إلى غيره من الطلبات الاستئنافية الأخرى وتُنضَّد ويوضع لها أرقام وتُسجل، ذلك لأن المقصلة[٥] مشدودة بشريطٍ قانٍ وهي تشكو البِطنة والتخمة ولكلٍّ دوره. فيجب عليَّ الانتظار أسبوعين... انتظار شيء غير مسرّ في النهاية... وأخيراً تلتئم محكمة النقض والإبرام

(٥) الگيوتين Guillotine أو المقصلة: سُميت كذلك نسبة إلى الدكتور گيوتين الذي اقترح استعمالها كأداة لتنفيذ أحكام الموت على المجرمين أيام الثورة الفرنسية ـ نبلاء كانوا أو عواماً (كلون من ألوان المساواة فقد كانت قبلها وسائل التنفيذ تتفاوت حسب مركز الشخص الاجتماعي) واختيرت المقصلة لأن الموت بها ـ كما يُقال ـ حالٌ سريع خالٍ من الألم وكان بدء استعمالها رسمياً في ٦ تشرين الأول سنة ١٧٩١. على أن وجودها كان قبل ذلك بخمسة قرون تقريباً.

(نهار الأربعاء في العادة) فترد في الحال الاستئنافية العشرين دفعةً واحدة وتعيدها كافة إلى الوزير المختص الذي يرسلها بدوره إلى المدعي العام وهذا الأخير يُخطِر الجلاد بما يجب عمله.

ثلاثة أيام!

وفي صباح اليوم الرابع يقول نائب المدعي العام لنفسه وهو يشد رباط عنقه:

ـ هذه المسألة يجب أن تنتهي.

فإذا لم يكن نائب رئيس كُتّاب المحكمة قد أقام مأدبة غداء لأصدقائه ـ وهو من قبيل الموانع ـ فإن الأمر بالتنفيذ يُمَلّى ويُكتب منه نسخة طبق الأصل ويُرسَل. وفي اليوم التالي عند الفجر يسمع المرء في ساحة (غريف) النجار يقيم المنصة موالياً طَرقاته، والمنادين في الشوارع العامة يعلنون النبأ بأصواتهم الخشنة.

وكل هذا يتم في ستة أسابيع.

لقد أصابت الفتاة كبد الحقيقة. لا بأس. عندي خمسة أسابيع أو ستة على الأقل. كنت لا أجرؤ على العد منذ أن احتواني سجن «بيستر» حتى ليبدو أن نهار الأربعاء كان قبل ثلاثة أيام!

٩

الآن فرغت من كتابة وصيّتي.

ما الفائدة؟ إني محكوم بتأدية دَين ثقيل وكلُّ ما أملك يكاد لا يكفي لسداده والمقصلة غالية الثمن للغاية. إني أترك أماً وزوجاً وبنتاً. طفلةً صغيرة عمرها ثلاث سنوات، حلوة عفراء رشيقة ذات عينين نجلاوين سوداوين وشعر طويل بني.

كان عمرها سنتين وشهراً واحداً حين ألقيت عليها آخر نظرة. إذن فسيتخلف بعد موتي ثلاث نساء بلا ابن ولا زوج ولا أب... ثاكلات ثلاث. أرامل ثلاث في نظر القانون. أقرُّ بأني أستأهل هذا القصاص لكن هاته البريئات أي جرم اقترفن؟ ليس مهماً أن يُصَبن بالعار والدمار فتلك هي العدالة ليس لأن أمر والدتي يقلقني فهي في الرابعة والستين وقد تقضي عليها الصدمة أو إذا بقي لها حتى اللحظة الأخيرة من حياتها جمرات قليلة من الفحم في موقد حياتها وعاشت بعد بضعة أيام فلن تشكو ولن تنبس ببنت شَفة.

كذلك أمر زوجتي فلن يورثني أمرها أي قلق... إنها تشكو الهزال والمرض منذ أمد طويل وستلحق بأمي هي أيضاً إلاّ إذا

أصيبت بالجنون وفي هذه الحالة ستعيش كما يُقال ـ لكن بدون أن يعاني فكرها ألماً سينام فيكون بحكم الميت.

لكن... بنتي... طفلتي ماري الصغيرة المسكينة التي تضحك الآن وتلعب وتغني ولا تدري شيئاً... آه هذا هو الذي يجعلني أشقى العالمين.

١٠

تحتوي غرفة سجني على ما يأتي:

ثماني أقدام مربعة وأربعة جدران مبنية بحجارة جصية ترتفع عمودياً ابتداءً من الأرضية المرصوفة بالبَلاط التي تعلو قليلاً عن مستوى الممشى الخارجي. وعلى يمين الداخل فسحة تستعمل بمثابة مضجع ألقي فيها حزمة من الخيش ليأوي إليها السجين ابتغاء الراحة أو النوم وهو بسرواله الكتاني وقميصه القطني الخفيف صيفاً وشتاءً. وناب عن السماء فوق الرأس طاقات مضلعة كئيبة المظهر يسمّونها «أوجيف Ogives» يتدلى منها نسيج العنكبوت الشبيه بالخِرق البالية لفرط غلظه. ولا شيء غير هذا يستحق الذكر خلا أن الغرفة معدومة النوافذ، ليس فيها غير منفذ تهوية واحد. ويأتي أخيراً الباب الخشبي المصفح بالحديد.

أستدركُ فأقول: هناك فتحة قريبة من الجانب العلوي من الباب مساحتها تسع عقد مربعة: شباك صغير يغلقه السجان ليلاً. وثمَّ ممشى طويل خارج الغرفة وافر الضوء فيه طاقات هوائية صغيرة قريبة من السقف للتهوية. هذا الممشى مقسم إلى غرف صخرية تفضي الواحدة منها إلى الأخرى بأبواب مقوسة واطئة وكل

جانب من هذا في سائر غرف السجن يقوم مقام غرف ملحقة بأمثال غرفتي، يمضي السجناء الذين يعاقبهم مدير السجن لمخالفة إدارية مدة عقوبتهم فيها، وخصصت الثلاثة الأول منها للمحكومين بالموت فهي أنسب للديدبان وأكثر راحة لأنها أقرب إلى مقر الحرس. هذه الحجرات هي كل ما تبقى من قصر بيستر العتيد. بناه في القرن الخامس عشر الكاردينال ونشستر(٦) الذي أمر بإحراق (جان دارك). سمعت ذلك من الزوار الذين جاؤوا لرؤيتي ثاني يوم لقدومي. كانوا يتطلعون إليَّ منْ بعيد كأني وحش معروض في قفص بعد أن أعطوا السجّان مائة صولدي(٧) لإدخالهم.

فاتني ذكر وجود حارس أُنيط به ملازمة باب غرفتي ليل نهار، لا أنظر من الفتحة إلاّ وتلتقي عيناي بعينيه المحملقتين الرقيبتين دائماً.

ومع كل ذلك فالمرء في هذا الصندوق الحجري لا يسعه إلاّ أن يتظاهر بأنه يتمتع بالهواء وضوء النهار.

---

(٦) جاء في معجم لاروس أن بناية رممت وأصلحت عام ١٦٣٢ لتكون قصراً يقيم فيه بانيه لويس الثالث عشر (المترجم).

(٧) عملة فرنسية لا وجود لها الآن كانت تساوي خمسة سنتيمات. فهي ١/ ٢٠ من الفرنك الذهب أي قرابة أربعة أفلس حسب قيمة الفرنك في ذلك الحين. (المترجم).

١١

كنت أفكّر فيما سأعمل أثناء الليل إذ إن ضوء النهار لم يَلُح بعد وعلى حين غرّة خطرت لي فكرة. فاستويت على قدمي ورفعت مسرجتي إلى الأعلى أتوضح بنورها جدران محبسي الأربعة. كانت مغطاة بالكتابات والرسوم والأشكال الغريبة حافلة بمجموعة من الأسماء يرمج أحدها الآخر حتى لكأن كل مجرم يريد أن يخلّف أثراً هنا مهما كان ضئيلاً. كتبت تلك الأسماء بالقلم وبالطباشير وبالفحم وبدت أحرفاً بيضاء وسوداء ورمادية، منها ما حُفر عميقاً على الصخر الأصم ومنها أحرف باهتة هناك وهنالك ـ حتى ليظن المرء أنها كُتبت بالدم.

لو كانت متمتعاً بصفاء فكري لزاد اهتمامي حقاً بهذا الكتاب العجيب الذي أخذ يتكشف أمامي صفحة بعد صفحة فوق كل صخرة من صخور محبسي، وإنني لأرغب في جمع هذه القطع المتناثرة من الأفكار المدوّنة على الأحجار لأجد صاحب كل اسم تحت اسمه لأعطي صورة صادقة نابضة بالحياة لهذه الكتابات المندثرة والعبارات الطامسة المفككة والكلمات الركيكة. . . إنها لأشبه بأجسام دون رؤوس كالذين كتبوها.

فثمَّ فوق رأسي وأنا على فراشي قلبان محترقان تخترقهما نبلة تعلوهما هذه العبارة:

«فلتحبني مدى الحياة».

إن الزميل المسكين لم ينعم طويلاً بحبيبته!

وإلى جانب هذه الكتابة صورة شبيهة بقبعة مثلثة الزوايا تعلو وجهاً سيئ الرسم وتحتهما هذه الكلمات:

«ليحيا الامبراطور! ١٨٢٤».

ثم تأتي القلوب المتحرقة مرة أخرى إلى جانب العبارة الشائعة في السجن:

«إنني أحب وأعبد. ماتيو دانفان جاك»

ووجدت على الجدار المقابل اسم (بابافوان) وكان الحرف الأول منه مزخرفاً مزيناً بالنقوش.

ووجدت سطرين من أغنية شائعة. ثم قبعة الحرية[٨] حُفرت حفراً بالغاً في الحجر وتحتها هذه العبارة:

«بوربيه ـ الجمهورية»

كان هذا أحد نواب ضباط لاروشيل[٩] الأربعة. يا للشبان المساكين ما كان أعنف آراءهم السياسية الخيالية! أفي سبيل فكرة؟ ألأجل حلم؟ أبسبب مُثلٍ عُليا هذه الحقيقة الفظيعة المسمّاة

(٨) نوع من غطاء الرأس شاع وقت الثورة الفرنسية وهو أشبه بالطرطور ولكنه يعمل من لين القماش. وعرف بهذا الاسم. (المترجم).

(٩) ميناء فرنسي يقع على ساحل الأطلنطي إلى الشمال. (المترجم).

(مقصلة)؟ وأنا هنا أشكو وأبثّ أنا الشقيّ الذي اجترحَ ذنباً حقيقياً وسفك دماً؟

لن أستمر في تقرّي الحيطان أكثر من هذا. ها أرى الآن فقط رسماً بالطباشير الأبيض في زاوية الحائط. إن المسرجة تكاد تسقط من يدي. إني الآن أُلقي بنفسي على كومة القش بسرعة، فيسقط رأسي على ركبتي لكن ما إن تلاشى رعبي الصبياني حتى اجتذبني فضول غريب في مواصلة تقرّي ما كُتب على الحيطان. أزلت من جهة اسم «بابافوان» نسيج عنكبوت مُثقل بالغبار كبير يغطي زاوية الحائط فوجدت تحته أربعة أسماء أو خمسة شديدة الوضوح وهي: دوتون ١٨٥١. بولان ١٨١٨. جان مارتان ١٨٢١. كاستين ١٧٣٢. كنت أقرأ هذه الأسماء مفكراً في مصير أصحابها الأليم. فدوتون الذي قطّع جسم أخيه أشلاءً ونقله إلى باريس ليلاً فرمى الرأس في نبع وألقى الجثة في ساقية. وبولان الذي ذبح امرأته. وجان مارتان الذي صرع أباه برصاصة طبنجة أثناء ما كان الشيخ يفتح نافذة. وكاستين الطبيب الذي أزهق روح صديقه الحميم بالسم وكان يسقيه المزيد منه على اعتباره دواءً أثناء ما كان يعوده في مرضه الأخير. وأخيراً بابافوان المجنون المخيف قاتل الأطفال الذي كان يحز رقابهم بخنجر أعدّه لهذه الغرض[١٠].

قلت لنفسي ورجفة حمّى تسري في حقوي:

---

(١٠) هم من المجرمين الذين لمعت أسماؤهم في عالم الجريمة آنذاك. (الناشر).

ـ أمامك فانظر هؤلاء الذين سبقوك إلى سكنى هذه الغرفة. هنا على هذه البلاطة نفضوا آخر ما في جعبتهم من أفكار. هؤلاء القتلة والسفاكون. داخل هذه الجدران في هذا المربع الصغير تجاوب وقع خطاهم الأخيرة جيئة وذهاباً كالوحوش الكاسرة رحلوا فحلّ محلهم آخرون حالاً. إن هذه الغرفة لا تخلو إلاّ في القليل النادر كما يظهر. إنهم ليتركون المحل دافئاً وهكذا تركوه لي وسألحق بهم بدوري إلى مقبرة كلامار Clamart[١١] حيث العشب أخضر أثيث دائماً!

لست بذلك المرء الخيالي أو بالذي يعتقد بالخرافات. ومن المحتمل جداً أن هذه الأفكار سببت لي حمّى. لكن ما إن تظاهر لي وكأن هذه الأسماء الرهيبة مكتوبة بسطور من نار على حائط أسود حتى بدأت دقات فظيعة ترن في أذني. وبهرَ ضوء أحمر عينيَّ وبدا سجني لي كأنه مملوء بالرجال... بأغرب الرجال، رجال يحملون رؤوسهم بيسراهم ويمسكونها من المشفرين لأن الرؤوس كانت خالية من الشعر، يتهددونني بقبضاتهم ويتوعدونني إلاّ واحد منهم وهو قاتل أبيه.

أغمضت عينيَّ وقد أخذ الرعب مأخذه وعند ذاك بدا لي كل شيء واضحاً. حلم أو خيال أو حقيقة... كنت جننت لو لم ينقذني حادث فجائي كان مجيئه في أنسب وقت. كنت أهمُّ

---

(١١) كانت مقبرة لأبناء السبيل موقعها في «سان مارسيل فوبور» لكنها هُدِّمت سنة ١٨٣٣ وشُيِّد محلها معهد التشريح العدلي. (الناشر).

بالاضطجاع على ظهري عندما شعرت بشيء يدب على قدمي العارية. . . جسم بارد ذي أقدام مكسوة شعراً. كان العنكبوت الذي أفزعته وهو يفر هارباً.

هذه الحادثة ردّتني إلى عالم الصواب. آه من الأخيلة الفظيعة! لا، إنها أطياف. إنها هذيان دماغي الأجوف المضني. رؤيا مكبث[١٢]!

الموتى موتى وبصورة خاصة هؤلاء الذين قرأت أسماءهم. إنهم تحت أطباق الثرى. والثرى ليس بالسجن الذي يمكن الخلاص منه.

ماذا عراني فصرت بهذه الدرجة من التخاذل والانهيار؟ إن باب القبر لا يُفتح من الداخل.

---

(١٢) رواية مكبث مشهورة وهي لشكسبير والرؤيا المقصودة هي رؤيا زوجته ليدي مكبث. (المترجم).

١٢

قبل بضعة أيام شهدت أمراً في غاية البشاعة تم وقوعه قبيل انبلاج الصبح، كان السجن إذ ذاك يضجّ بالأصوات. سمعت الأبواب الثقيلة تُفتح وتُغلق وصرير المزاليج وصليل السلاسل الحديد وخشخشة حلقات المفاتيح المدلاّة من أحزمة السجّانين وطقطقات الدرج تحت الأقدام الخفيفة الجري من الأعلى إلى الأسفل والنداءات والردود من أقصى الدهاليز والأقبية. وظهر في غرف السجن على أوجه جيراني المحكومين أمارات حبورٍ أكثر من المعتاد. لقد بدا سجن بيستر كله، وهو ضاحك الثغر مرنح الأعطاف. كنت الوحيد الذي احتفظ بسكونه وظل على هدوئه. في وسط هذه الجلبة في هذا الضجيج صرت أتسمَّع مرهفاً أذني فمرَّ سجّان فغامرت وناديته مستفسراً:

ـ هل يوجد عيد في السجن؟

فأجابني بقوله:

ـ سمِّه عيداً إن شئت... فاليوم هو موعد تكبيل المحكومين بالحديد حيث إنهم سيبدأون غداً سفرتهم إلى تولون... أتحب أن تراهم؟ إنه لمنظر مُسلٍّ.

كان في الحقيقة منظراً بعثته محاسن الصدف لمسجون في محبس منفرد وإن كان مما تعافه النفس.

قبلت الدعوة (البهيجة) واتخذ السجان الاحتياطات الضرورية المعتادة للمحافظة على شخصي واقتادني إلى غرفة صغيرة خالية ليس فيها أثاث قط لكن فيها منفذاً يصح تسميته بالشباك ارتفاعه بطول الكوع والناظر يمكن أن يتوضح منه السماء. قال لي السجّان:

ـ دونك، من هنا يمكنك أن تسمع وأن ترى. ستكون وحيداً في مقصورتك هذه كالملك.

ثم خرج وأدار المفتاح في القفل وأحكم الرتاج وربط السلسلة. كانت النافذة تشرف على ساحة مربعة يحيط بها بناء حجري مشمخرّ يعلو صعداً كالجدار إلى ارتفاع ستة طوابق. لا شيء أعظم بؤساً ورثاثة وعُرياً من هذه الجدران الأربعة التي جُعل فيها عدد كبير من النوافذ المسدودة المشبّكة بالقضبان الحديدية وقد التصقت بها ـ من تحت إلى فوق ـ أوجه هضيمة كالحة منهوكة صُفَّ واحدها فوق الآخر حتى أشبهت بعض حجارة من الجدار نفسه موضوعة في إطارات مشبكة إن صح التعبير. كان هؤلاء السجناء يتفرجون مثلي على الحفلة منتظرين يومهم الذي سيكونون فيه الممثلين. أو أنهم أرواح تقضي عقوبة المُطهَّر[١٣]

---

(١٣) المُطهَّر هو المكان الذي يُزعم أن النفس تتطهَّر فيه قبل دخول الجنة. ويقابل ما يُعرف «بشاطئ الأعراف». (المترجم).

وهم في طريقهم إلى جهنم كلهم يرنو بسكون إلى الرحبة الحالية. كانوا يتطلعون منتظرين ومن أوجههم المتبلِّدة كانت تلتمع هنا وهناك أعين حادة ثاقبة كأنها نقاط من نار. لم يكن بناء السجن المحيط بالباحة من جوانبها الأربعة جداراً أصم لا ثغرة فيه. ففي الجانب المواجه للشرق فُرجة قريبة من المركز تتصل بالقسم الآخر بواسطة درابزين حديدي يفضي إلى باحة ثانية أصغر من الأولى لكنها صورة منها طبق الأصل تقوم على جوانبها الأربعة الجدران المفعمة بالكُوى السوداء. وعلى مدار الباحة الرئيسة انتثرت مقاعد حجرية وفي الوسط رُكِّز عمود من الحديد عُلِق في نهايته مصباح.

آذن وقت الظهر، وعلى حين غرّة انفتح باب واسع كامن خلف الدرج ومنه تهادت عجلة مكشوفة إلى صحن السجن مجلجلة مقعقعة يخفرها درك قذرو الهيئة تبدو الرثاثة عليهم بأجلى مظاهرها وبأوجه خط عليها العار والدناءة أسطراً وهم مشتملون ببذلات زرقاء تطرزها شرائط ومعلمات حمراء مع أنطقة جلدية صفراء. كانت هذه العجلة تسير متثاقلة على أرض الباحة وصوت رنين الحديد يُسمع من باطنها. أقبلت تحمل أطواق المحكومين بالعمل في السفن مع سلاسلهم(١٤).

في تلك اللحظة هاج كل مَن في السجن كأنما أثارهم هذا الصوت. وأخذ المتطلعون من الشبابيك وكانوا حتى اللحظة

---

(١٤) كان المحكومون بالأشغال الشاقة يؤخذون إلى قيعان السفن ليجدفوا فيها طوال مدة محكومياتهم شأنهم في ذلك شأن العبيد في الزمن القديم. (المترجم).

صامتين لا يتحركون، يطلقون صيحات الفرح والتهليل وارتفعت أصواتهم بالغناء وباللعنات الممتزجة بقهقهات وضحكات تصمّ الآذان. كان الوضع أشبه بحفلة تنكرية للمردة والجن حيث ارتسم الحقد والشر على كل وجه وبرزت قبضات الأيدي من خلال القضبان الحديدية وارتفع كل صوت بالصراخ وبرقت كل عين فعجبت كيف التمعت شرارات كثيرة من تحت هذا الرماد الخابي.

والمرء ليستطيع أن يميز من بين هذا الجمع، يميزهم من ثيابهم النظيفة وشدة هلعهم ـ نماذج غريبة ممن جاؤوا من باريس ليرقبوا السجّانين وهم في عملهم هذا دائبون بكل جدّ وهدوء.

رقي أحد السجّانين العجلة وقذف بالسلاسل ـ ياقات السفر ـ إلى رفاقه ثم أشفعها بسراويل كتانية محزومة. واقتسموا العمل فيما بينهم: ففرقة أخذت السلاسل الطويلة المرموز إليها بلغتهم الخاصة باسم «خيوط الحرير» إلى أحد أركان الباحة حيث مدتها على أرضها. ونشرت الفرقة الثانية السروايل والقمصان ـ أي الديباج بلغتهم ـ على طول الرصيف. بينما أخذ الأذكياء من السجّانين بإشراف رئيسهم ـ وهو رجل صغير الجرم كبير السن متين الألواح ـ يختبرون صلاح الياقات أي الأطواق الحديدية واحدة بعد الأخرى ويتأكدون من صلابتها بضربها فوق الصخر. حدث كل هذا وسط هتافات السجناء وسخريتهم. لم يكن يغلب على ضجيجهم إلاّ تلكم القهقهات الراعدة الصادرة من المحكومين الذين أُقيم لهم هذا الاحتفال والذين يسهل على المرء أن يتبيّن أنهم حُشدوا خلف نوافذ السجن القديم المطلّ على الباحة الصغرى.

عندما كملت الاستعدادات أعطى سيد ذو جدائل فضية على نهايتي كتفيه يدعى المفتش أوامره إلى محافظ السجن وما هي إلاّ لحظة حتى فُتحت ثلاثة أبواب واطئة ولفظت من جوفها إلى الباحة كتلاً من الرجال كسحب دخان، رجال منظرهم يدمي القلب بأطمارهم وهم يضجّون صارخين. . . هؤلاء هم المحكومون. تضاعف التهليل واشتد الترحيب بهم من الشبابيك في ساعة دخولهم الباحة. احتفى مشاهير المحكومين بهذه التحايا المشلة وتقبلوها بكبرياء متواضعة. كان أغلبهم يضع على رأسه قبعات من الخوص من مختلف الأشكال والأزياء نسجوها في غرفهم وكلها غريبة الشكل إذ قصدهم منها أن يجتذبوا الأنظار في المدن التي يمرون بها. ولقد ظفر هؤلاء أصحاب القبعات بالقسط الأوفى من الاستحسان واحد منهم بصورة خاصة أثار أكثر الحماسة. كان فتى في السابعة عشرة من العمر وجهه يشبه وجه فتاة غضة الأهاب. خرج من غرفة سجنه التي ظل لا يبرحها أسبوعاً كاملاً، وهو عاكف على نسج بتية سابغة أخفت جسمه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه من كومة القش التي أعطيت له لتكون فراشاً. فبرز بها إلى الساحة يتدحرج ويتدحرج على الأرض كما تتلوى الأفعى. كان هذا الفتى ممثلاً هزلياً وقد حُكم عليه بالسجن لسرقة. كان تصفيق يصم الآذان وزعيق يقلقل الجبال أجاب عليه المحكومون بالتجديف المماثل. لم يكن مزعجاً أمر تبادل هتاف السرور بين محكومي الحاضر ومرشحي المستقبل. لم يكن ثمَّ وزن أو مقام للجمع المؤلف من السجانين والزائرين الذاهلين

حيث الجرمية تضحك وتهزأ بصورة علنية فتقلب العقوبة الصارمة إلى عيد خصوصي من أعياد العائلات.

كانوا أثناء دخولهم يُدفعون بين صفّين من الدرك خلال الباب الحديدي المفضي إلى الباحة الصغرى حيث ينتظرون الأطباء وهناك كانوا يقومون بالمحاولة الأخيرة للتملص من السفر مختلقين شتى المعاذير لصحتهم المتردية وأعينهم الرمد وأرجلهم العرجاء وأيديهم المكلومة، لكن يتضح عند الكشف الطبي أن صحتهم جيدة تؤهلهم للأشغال الشاقة. وعندئذ يستسلم كل منهم إلى نصيبه المحتوم راضخاً، ناسياً ببضعة دقائق عاهته المزعومة إلى آخر ساعة من ساعات حياته.

ويعود فيُفتح الباب الحديدي ويقوم الدركي بمناداة كل محكوم باسمه على ترتيب الحروف الأبجدية فيُقبِل المحكوم نحو الزاوية ويصطف إلى جنب زميل اتفق أن كان الحرف الأول من اسمه يليه في الترتيب، وهكذا يجد كل رجل نفسه صفراً لا غير. كل واحد يُقيَّد بسلسلته الخاصة إلى جنب شخص غريب عنه، فإذا اتفق أن كان لمحكوم صديق، فالسلسلة تفرّق ما بينهما، وهذا لعمري أعظم قصاص. أُوصد الباب الحديدي بعدما خرج منه حوالى الثلاثين. وأخذ حارس مستعيناً بعصاه يصفُّ المحكومين على هيئة النسق. ثم طَرحَ أمام كل واحد منهم سترة وسروالاً من الكتان الخشن. فبدأوا بنزع ما عليهم من أطمار. وهنا حصل أمر غير منتظر قلب ذلّتهم وعارهم إلى عذاب وتباريح. كان الجو حتى تلك اللحظة رائقاً صاحياً وريح الشمال الصرصر تشيع البرودة في

الهواء، وكان ينفرج هنا وهناك من بين طبقة الغيوم السوداء الطخياء كوى ينفذ منها وجه الشمس. لكن ما كاد المحكومون يتعرّون تماماً ويلقون عن جسومهم خرق السجن ليقفوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم بسبب التفتيش الدقيق الذي يجريه عليهم السجانون، ما كادوا يقفون هكذا أمام أنظار الغرباء الذين استداروا ونكصوا على أعقابهم حياءً وأخذوا يتطلعون إلى ظهور المحكومين، حتى اكفهرت السماء فجأة وهبّت ريح خريف كأنها السياط اللافحة، وأخذ المطر يهطل بغزارة على الأرض وعلى رؤوس المحكومين الحليقة العارية وعلى ثيابهم الرثة الملقاة جانباً. وبأسرع من غمض العين خلت الساحة ممن ليس محكوماً أو دركياً واحتمى العيّارون والفضوليون القادمون من باريس بأعتاب الأبواب وأطنافها، وكان المطر رغم ذلك ينثال من عَلٍ كأنما ينصبّ من أفواه القِرَب. ولم يبقَ في الساحة الواسعة غير المحكومين العراة والسيول وهي تمور على الأرصفة المغمورة بالماء. وحلَّ صمت مهيب محل صياح الفخر والتبجح. كان المحكومون يرتعدون ـ أسنانهم تقضقض، وسيقانهم ترتعش، وركبهم تصطك. كان منظرهم مؤلماً وهم يسترون أعضاء جسومهم المزرقة برداً بقمصانهم المبتلة وصُدَرهم[(١٥)] وسراويلهم وهي تشخب ماءً. إن العري لخير لهم من ذلك. ظل واحد من المحكومين، وهو شيخ بلغ أرذل العمر، محتفظاً بمرحه فهتف

(١٥) مفردها صِدار (بكسر الصاد) وهو ثوب قصير يلي السترة ويستر الصدر. (المترجم).

وهو يجفف جسمه بقميصه المبتل:

ـ لم يكن هذا من ضمن المنهاج!

ثم انفجر ضاحكاً وهو يهدد السماء بقبضته.

بعد أن لبسوا ثياب السفر، اقتيدوا جماعات من عشرين أو ثلاثين إلى ركن آخر من الساحة حيث السلاسل الممدودة على الأرض بانتظارهم. كانت متينة طويلة تعترض الواحدة منها سلاسل فرعية قصيرة مربوطة بالسلسلة الرئيسية على كل مسافة قدمين. وكان يوجد نهاية كل سلسلة فرعية، طوق حديدي مربع الشكل يُفك بواسطة مفصل ويُسمَّر حول عنق المحكوم بمسمار حديدي فيحيط بالعنق طول الرحلة. هذه السلاسل قريبة الشبه بهيكل عظمي لسمكة حين تُمدُّ على الأرض.

أُمِر المحكومون بالجلوس فوق الأوحال ووُضعت الأطواق في أعناقهم ثم أقبل من السجن حدادان يحملان سندانين فسمَّرا الأطواق في الأعناق بأن أهويا عليها بضربات عنيفة من مطرقتيهما فوق البرشام[١٦] دون أن يتكلفوا عناء وضعها في النار. كانت لحظة رهيبة ارتجف لها فرقاً أعتى المجرمين وأصلبهم عوداً. كل ضربة سندان تستقر على سطحه تجعل ذقن الرجل المطوقة عنقه يهتز ويرتج، وكانت أصغر حركة منه إلى الأمام أو إلى الوراء كفيلة بفلق جمجمته وتطاير عظامها كما تتطاير قشرة الجوزة.

بعد هذه العملية، ران الهدوء على المحكومين ولم يعد يسمع

---

(١٦) تلفظ عندنا البرچيم، بالجيم المعجمة. (المترجم).

غير صليل السلاسل أو صيحة بين الفينة والفينة أو صوت محكوم يأبى الاستكانة. وكان منهم مَن بكى، أو المتقدمون في السن فكانوا يرتجفون ويعضّون على شفاهم. نظرت من زاوية جانبية إلى هذه الوجوه الشريرة وهي ترسف في أطواقها الحديدية فتملّكني رعبٌ قاتل.

زيارة الأطباء. دور تفتيش الحراس. ثم أخيراً تثبيت الأطواق الحديدية. فصل لعمرك فيه مشاهد ثلاثة!

عادت الشمس إلى الظهور فبدت كأنها أشعلت النار في رؤوس المحكومين. فهبّوا معاً هبّة رجل واحد والتحمت السلاسل الطويلة الخمس بعضها ببعض والْتفت حلقة عظيمة حول عمود النور. تعبت عيناي من كثرة مراقبتي دورانهم. صاروا يغنون أغنية سجن: قصة شعرية علمية بنبرة شجية صاخبة مفرحة. كان يسمع بين حين وآخر صرخات حادة، وقهقهات لاهثة تمزق القلوب، ممتزجة بآهات مكتومة، ثم هتاف جنوني.

وكانت خشخشة السلاسل الحديدية الرتيبة شبيهة بجوق موسيقي جعل لمصاحبة تلك الأغنية بالذات. لو حاولت إيجاد صورة لجمعية من الشياطين لما سألت خيراً من هذه الصورة أو... شراً.

جيء بجفنة كبيرة إلى الباحة، وأنهى السجّان رقص المحكومين بضربات من هراوته. اقتيدوا إلى حيث وضعت الجفنة. لا أدري ما نوع الخضروات التي كانت تسبح فيها. لا أرى أي سائل قذر كان يتبخر ويتصاعد منها. على كل فقد أكلوه

وبعد أن شبعوا رموا بالباقي من الحساء والخبز الأسود على الأرض واستأنفوا الغناء والرقص مرة أخرى. الظاهر أن إدارة السجن كانت تسمح لهم بهذه الحرية الممتازة هذا اليوم والليلة التي تليه.

راقبت هذا المشهد الغريب بفضول نهم وقلق متلهف حتى أني نسيت بلواي تماماً وهزمني شعور بالشفقة عميق نفذ إلى شغاف قلبي. لقد أبكتني ضحكاتهم!

وعلى حين غرّة وفي غمرة شرودي الذهني، شاهدت حلقة المحكومين النابحة الصارخة تقف على الأقدام وتستدير وقد ران عليها الصمت المهيب. ثم دارت الأعين دفعة واحدة إلى النافذة التي كنت أسترق منها النظر. وصاحوا كلهم صيحة رجل واحد مشيرين إليَّ بأصابعهم:

ـ هو ذا المحكوم بالموت! هو ذا المحكوم بالموت!

وتضاعفت صرخات جذلهم.

بقيت مشلولاً.

لم أدرِ كيف عرفوني وكيف استدلّوا عليَّ ولم يروني من قبل، تنادوا وهم يضحكون ضحكات صفراء مكشِّرة:

ـ صباح الخير! مساء الخير!

واحد منهم، كان محكوماً بالأشغال الشاقة المؤبدة، في مقتبل العمر، كان واضح الجبين، محتقن الوجه ـ رمقني بنظر حادّ وقال (يقصدني):

ـ إنه لسعيد الحظ! إنه «سيُفصل»! ففي أمان اللَّه أيها الزميل!

يتعذر عليَّ تفسير ما جال في خاطري. إني لزميل لهم حقاً، فساحة «غريف» هي أخت «طولون» ثم إني أتعس منهم درجة، لذلك يكرمونني. شاعت فيَّ رعشة، أجل أنا زميلهم وبعد أيام قلائل، سيُجعل مني مشهداً مسلياً لهم.

بقيت قريباً من النافذة مشلولاً مصعوقاً واهناً، وعندما رأيت السلاسل الخمس الممدودة تتحرك إلى الأمام بقوة شيطانية، عندما سمعت رنين سلاسلهم المجلجل وصيحاتهم ووقع خطاهم في أسس الجدار، توهمت أن عسكراً مجراً من الشياطين يهمّون بتسلق الحائط واقتحام غرفة سجني الحقيرة. فصرخت وألقيت نفسي على الباب بقوة كافية لكسره لكن لا سبيل إلى الفرار، كانت المزاليج محكمة الوضع من الخارج. ناضلت. صرخت وقد جُنَّ غيظي. خيّل لي أني أسمع صرخات المحكومين الرهيبة تدنو شيئاً فشيئاً. خُيِّل لي أني أرى رؤوسهم البشعة تطل من قضبان نافذتي، أطلقت صرخة أخرى أليمة وسقطت مغشياً عليَّ.

كان الليل قد عسعس عندما عدت إلى صوابي. وجدت نفسي على فراش المرض، وعلى ضوء مصباح كان يتأرجح في فضاء القاعة متدلياً من السقف تبينت أسرَّة المرضى وقد انتظمت صفاً واحداً عن الجانبين. ظهر لي أني نقلت إلى المستشفى. بقيت مستيقظاً بضع دقائق، وكان رأسي خالياً من أي فكرة أو خاطرة خلا الشعور السار لشخص مضطجع على سرير. الحق يُقال إن سرير المستشفى هذا، بل السجن نفسه، كان كفيلاً بأن يجعلني

أرتعد عاراً واشمئزازاً، لكني لم أعد الآن ذلك الشخص السابق. كانت أغطية السرير السمراء خشنة الملمس، واللحاف خفيفاً مملوءاً بالثقوب. إني لأتحسس حشية القش تحت النضيدة... لا بأس بهذا! في وسعي أن أمد أعضائي بين هذه الأغطية الخشنة، يا فرحتي يا جذلي...

شعرت (وأنا تحت اللحاف الرقيق) بأن ذلك البرد القارس المتلف الذي كان قد تسلل إلى نخاع عظامي حتى ألفته ـ بدأ يختفي ثم... أدركني النوم ثانية.

أيقظني ضجيج عالٍ صادر من الخارج وكان الوقت فجراً، وفراشي قريباً من النافذة، فجلست لأتبيّن مصدره.

كانت النافذة تشرف على الباحة الواسعة لسجن (بيستر) التي عجّت آنذاك بالناس. هناك صفان من الجنود كانوا يحاولون جهدهم للمحافظة على فرجة ضيقة في وسط هذا الجمع وبين ذينك الصفين من الجند. ما عتمت أن أقبلت خمس عربات نقل مملوءة رجالاً تتهادى ببطء وتهتز كلما اصطدمت عجلاتها بصفاة نافرة من الصفا التي رُصفت به دكة الطريق: إنهم المحكومون يُرحّلون.

كانت عربات النقل مكشوفة. احتلت كل مجموعة من المحكومين مربوطة بسلسلة واحدة، عربة وتمّ إجلاس هؤلاء جنباً إلى جنب على كل طرف متلاصقين، تفصلهم السلسلة المشتركة التي كانت ممتدة ومستقرة في قاع العربة وقد وضع حارس واقف قدمه على نهايتها وبيده بندقية محشوة. إن المرء ليسمع رنين

السلاسل واضحاً، ويرى رؤوس المحكومين تتمايل وسيقانهم المتدلية تتأرجح.

كان المطر يهطل مدراراً في قطرات دقيقة فيجعل الجو بارداً قارساً. التصقت سراويل المحكومين الكتانية المبتلة بركبهم، فاسودَّ لونها الأسمر، وأخذت لحاهم الطويلة وشعور رؤوسهم تقطر ماء، واحتقنت وجوههم واشتدَّ احمرارها حتى كان من السهل على المرء أن يتبيّن أنهم يرتعشون برداً وأن أسنانهم تصطك حنقاً وبرداً والأنكى من كل هذا أنهم ما كانوا يطيقون حركة. ما إن يُسمَّر الطوق في عنق واحدهم حتى يصير جزءاً مكملاً من هذا الشيء الفظيع المسمى بالسلسلة المتحركة كرجل واحد. ألا فليمت الفكر! فالنير الذي يطوق رقبة السجين يحكم على الفكر بالموت، فلا يعود المحكوم أكثر من حيوان لا يحتاج إلى أكثر من أن يجوع في أوقات معيّنة. تراهم مسمَّرين في أماكنهم بهذه الحالة، أغلبهم نصف عراة، رؤوسهم حاسرة، أرجلهم متدلية، يغذّون السير في مسيرتهم هذه ذات الأيام الخمسة والعشرين، في العربات نفسها، وبثياب متشابهة. في هجير شمس تموز المحرق وبرد أمطار تشرين الثاني... إن المرء ليجرؤ على القول بأن الواحد منهم ليودّ أن يستصرخ السماوات العُلى طالباً الرحمة تجيئه بشخص الجلاد!

لا أدري أي محاورة فظيعة كانت تدور بين جمهور النظارة وراكبي العربات. إهانات من جانب، يقابلها غطرسة وأنفة من الجانب الآخر، ثم شتائم من كلا الجانبين!

وبإشارة من الضابط، شاهدت الهراوات تنثال كالمطر على الأكتاف والرؤوس اعتباطاً، فاتخذ الكل المظهر الخارجي للسكون الذي نسمّيه النظام. لكن العيون كانت طافحة بالحقد والضغينة. ثم تقبضت أيدي هؤلاء التاعسين على ركبهم إيذاناً بانتهاء كل شيء.

اختفت العربات الخمس، الواحدة بعد الأخرى مارّة من تحت الطاق العالي لباب (بيستر)، يحرسها الفرسان والمشاة. ثم لحقت بالموكب عربة سادسة ترنُّ بداخلها القصاع والأباريق ومختلف السلاسل، وجرى على أعقابهم عدد من الحرس كانوا قد تأخروا بعض الشيء في المقصف وهم يتراكضون للحاق بالركب. وأخذ جمهور المتفرجين يتفرق واختفى المنظر كله كأنه طيف من الأطياف. بقيت أسمع هدير العجلات الثقيلة يضمحل تدريجاً مع وقع سنابك الخيل وهي تخبُّ مبتعدة، على الجادة الوعرة المرصوفة المؤدية إلى فونتنبلو، كذلك اختفت فرقعة السياط ورنين السلاسل وصياح الناس وهم يتمنّون للمحكومين سفرة تاعسة. إنها البداية بالنسبة لهم! ماذا قال لي المحامي؟ «الأشغال الشاقة المؤبدة؟».

آه أجل، حبذا الموت ألف مرة. المقصلة خير من السجن. العدم ولا جهنم. إنه لخير لعنقي أن يعنو لشفرة المقصلة من أن يخنع لطوق المحكومين! الأشغال الشاقة في أحواض السفن! رحماك أيتها السموات!

١٣

لم أكن مريضاً لسوء حظي. ففي اليوم التالي غادرت المستشفى واحتوتني غرفتي مرة أخرى. لا لستُ مريضاً إني في الواقع صغير السن صحيح الجسم قوي البنية، الدم يجري في عروقي حراً مسرعاً وأعضائي جميعها تستجيب لكل خطرة ينبض بها فكري، إني قوي جسماً وعقلاً وتركيبي الجسماني موقوف على حياة طويلة. أجل هذا سحيح، ومع ذلك فأنا مريض بداء عُضال. داء من عمل البشر.

منذ أن غادرت المستشفى وضميري تلازمه فكرة قاسية، فكرة أسلمتني إلى الجنون وهي احتمال الفرار لو بقيت في المستشفى. خُيِّلَ لي أني أثرت اهتمام الأطباء والممرضات. أن أموت شاباً في مثل هذا العمر؟ ميتةً كهذه؟ خُيِّلَ لي أنهم يشفقون عليَّ. لقد كانوا يحفون بسريري متشوقين متلهفين ـ بل بفضول وحب استطلاع، ألا تبّاً لهم.

ألا فكِّر في أن هؤلاء قادرون على شفائك، على شفائك بكل سهولة من الحمى لا من حكم الموت ومع ذلك فقد يكون هذا الشيء سهلاً عندهم أيضاً. باب مفتوح! ألا يتكفل هذا بإتمام

الأمر؟ لا، لا رجاء من بعد الآن، سيرفض استئنافي، فكل شيء جرى بانتظام وترتيب، ولقد كان في شهادات الشهود أكثر من الكفاية. كذلك الأمر من محاميَّ فإنه قدَّم دفاعاً جيداً على قدر المستطاع.

... والحكام إنهم الآخرون أصدورا قراراً صحيحاً عادلاً. لا يمكن الاعتماد على شيء ما سوى... طبعاً... لا. الجنون؟ لا أمل فيه. الاستئناف؟ إنه حبل شُددت به وأنت تتأرجح فوق الهاوية، والحبل يكاد ينبت في كل لحظة حتى ينبتّ فعلاً. كأنما يقتضي لسقوط سكين المقصلة على الرأس نحواً من ستة أسابيع.

آه لو نلت تخفيضاً؟ أي ضير لو نلت تخفيضاً؟ بشفاعة مَن؟ لأي سبب؟ لماذا؟

أما أنهم لن يمنحوني تخفيضاً، فذلك أمر مفروغ منه، لكني أذكر ذلك على سبيل التمني كما يقال: لم يبقَ لي إلاّ أن أخطو ثلاثاً:

بيستر... الكونسييرجي... لا غريف

١٤

قضيت ساعاتي في المستشفى جالساً قرب النافذة أنعم بأشعة الشمس، التي عادت إلى الظهور، أو قل إني نلت كل الأشعة التي استطاعت أن تزحف من خلال قضبان النافذة.

لبثت هناك ورأسي مدفون بين راحتيَّ اللتين ناءتا بحمل أكثر ما تطيقان حمله منه. أسندت مرفقي على ركبتي، وأرحت قدمي على عوارض الكرسي. إن الغشية جعلتني عاجزاً منهوك القوى. فقد تفقع جسمي وتكور كأنما لم يعد في أوصالي عظام أو في عضلاتي لحم. وأخذ جو السجن العفن يضايقني أكثر من ذي قبل. ولازم أذني دويُّ السلاسل وصليلها. في هذا السجن شعرت بملل غلاّب. حبذا لو مَنَّ اللّه الرحيم عليَّ بطير صغير ليغرّد هناك فوق إفريز السطح على الأقل. أهو الرحمن الذي سمع صلاتي أم الشيطان؟ الحق لست أدري، لكني سمعت في تلك اللحظة صوتاً تحت نافذتي، لم يكن تغريد طير، بل كان خيراً منه. إنه صوت رائق منعش ناعم لفتاة في ربيعها الخامس عشر. نصبت رأسي في الحال. أصغيت بشوق واهتمام إلى الأغنية[١٧]. كانت شجية

(١٧) أورد المؤلف هذه الأغنية بالعامية الفرنسية. وعاوننا في ترجمتها الأب

ناعمة، إنها مرثية حزينة صادرة عن قلب مكلوم وإليك نص الأقفال والمصاريع كما أتخطَّرُها:

كانوا ثلاثة شرطة أجلاف — أواه
في درب «مِيلِ» عقّبوا أخفافي — ويلاه
حتى إذا وصلوا إلى أطرافي — أنا الشقي العاثر

* * *

لست أدري أي شعور حزين استولى عليَّ واستمر الصوت منشداً:

حتى إذا وصلوا إلى أطرافي — أواه
شدّوا وثاقي جرجروني مرغماً — ويلاه
والسجن أغلق دون وجهي مجرماً — ويلاه
وأتوا «بميدوني» يخيف الأرقما — جاسوسهم

* * *

فعلا صراخي في اطلاب النجدة — رباه!
وإذا بلصٍّ من شُقاة محلتي — يجيبني:
«لبيك» قلت: «لك الفاء بمهجتي» — أسرع إليَّ. . . آه

* * *

أسرع إلى زوجي فخبرها بما

توما الدمينكاني في الموصل. وحاولت نظمها وزناً وقافية. . . بالمعنى (المترجم).

فعلوا، وأغفل ما تراه مؤلماً

إني أراك لجراح قلبي بلسماً   أواه، ويلاه

* * *

في السجن كيف عُصرت عصراً أحمراً»   أواه

قالت «إذن قد جاء أمراً منكراً؟»   ويلاه!

وأتت إليّ وقد شعرت بما جرى تقول وهي تبكي:

«ما الخطب»؟ قلت: تجمّلي وتصبَّري

بلوطة، عرقت بضربة خنجري

ودماؤها سالت ولا كالأنهرِ   ـ وا شقوتاه ـ

* * *

. . . ثم اقتحمت على القتيل المخدعا   كأنذل اللصوص

وسلبت ساعته وما قد جمعا،   من مال

فتداركي خطباً جليلاً مفزعاً»   ويلاه!

* * *

راحت إلى «ڤرساي» ترجو ربّهْ   مستعطفة

أن يستجيب لها ويغفر ذنبه

وتضرعت كيلا يقرر صَلبَه

* * *

لو حقق الملك الهمام مرامها
وأنالها خريتي وزمامها
لقضيت عمري لاثماً إقدامها كالعبد

* * *

وكسوتها من أروع الأثواب
ثوباً تتيه به على الأتراب
ونقشت نعليها بزهر الغابِ

* * *

لكن عاهلنا الجليل الأعظما تباً له
ثارت عقاربه وصاح مقسما بأغلظ الأقسام:
«سأدقه دقاً وأحتلب الدما

* * *

سأدقه دقاً وأحتلب الدما
وسأنصب في الفضاء منصةً
بين السما والأرض يرقص رقصةً حتى يكون
أُحدوثة للمجرمين... وقصةً...

* * *

ثم إني ما عدت أسمع شيئاً ولم أكن راغباً في سماع شيء.

إن هذه المعاني نصف المقنعة للمرثية المفجعة نضال اللص مع الشرطة. صديقه العيار الذي لقيه فأرسله إلى زوجه بتلك الرسالة

المؤلمة «لقد قتلت رجلاً فألقي القبض عليَّ (عرقت شجرة بلوط وأنا في غياهب السجن)» ثم الزوجة وهي تسرع إلى «فرساي» بمرحمتها. ثم «جلالته» الذي اجتاحه الغضب العظيم، فصار يهدد مقسماً بأنه سيجعل الجاني (يرقص حيث لا توجد أرض يضع عليها قدميه)... هذا كله أنشدته بلحن رائع وصوت جميل أخّاذ لا مقطع فيه إلاّ وتطرب الأذن له.

كنتُ كسير القلب، مشلولاً، مغلوباً على أمري. هذه الكلمات الفاضحة الشنعاء وهي خارجة من شفتين غضتين ورديتين شيء مخيف فظيع. ما أشبهها بالوسخ الذي تخلّفه (حشرة البزاقة) فوق الوردة!

لا أدري كيف أعبّر عن الشعور الذي خالجني. اني جُرحت، وفي الوقت نفسه أوذيت، لغة السفلة، لسان الأوباش الغريب، لغة غريبة كهذه تقطر نجيعاً، لكنة قبيحة تجري على فم فتاة يافعة، في صوتها مزيج رائع من جِرْس الطفولة والأنوثة الناضجة. كل كلمة من هذه الكلمات الغليظة والتعابير المخجلة تتسارق منغومة ملفوظة بأحلى وأدق ما يمكن.

آه أيُّ محل قذر هذا السجن؟ إن فيه لسُمّاً يؤثر على كل مَن في داخله وحواليه فيفسد كل شيء، يفسد حتى غناء يافعة في الخامسة عشرة من العمر. إن وجدت طيراً فيه فمن الأكيد أن على جناحيه غباراً. إن قطفت وردة جميلة يانعة وشممتها فلا شك أنك واجد فيها رائحة كريهة.

١٥

آه لو تسنّى لي الفرار، كيف سأعدو في أرجاء الحقول! كلا إني لن أركض، فهذا مما يثير حولي الشك، بالعكس، يجب أن أسير الهوينا وهامتي مرفوعة في الهواء وأنا أغني. يجب أن أعمل جاهداً للحصول على «بِتيّة» زرقاء مطرزة بالأحمر، فسيكون هذا تنكّر لا نظير له، فكل القرويين في الجوار يلبسون هذا الرداء. أعرف محلاً لا يبعد عن (أركول) كثيراً، مجموعة من الأشجار على حافة مستنقع كنت اعتدت الذهاب إليه مع أصدقائي أيام الصبا وأنا تلميذ في المدرسة لأصطاد الضفادع كل يوم خميس. يجب عليَّ أن أخفي نفسي هناك حتى الغسق. وعندما يعسعس الليل، عليَّ أن أواصل رحلتي فأتوجّه إلى «ڤَنسين». كلا فسيعترض النهر سبيل فراري، سأتجه إلى «أرباجون» فهي أفضل لي لمواصلة سيري منها إلى «سان جرمان» ومنها إلى الهافر حيث أستقل قارباً إلى إنكلترا... ما الفائدة من هذا؟ سأصل إلى «لونجويو». سيعترضني شرطي فيسأل عن جواز سفري... وهنا الطامة الكبرى! واه لي من بائس يحلم، عليك أولاً أن تنقب حائطاً سمكة ثلاثة أقدام يسد عليك سُبل الهرب! الموت! الموت! عندما أذكر لنفسي أني جئت هنا إلى بيستر طفلاً لأرى آباراً عميقة وأتفرج على المجانين!

١٦

بينما أكتب هذا، تهافت نور مصباحي وأقبل ضوء النهار وأعلنت ساعة الكنيسة السادسة صباحاً. ماذا تراه يريد أن يقول لي؟ دخل السجّان غرفتي وحيّاني برفع قبعته معتذراً عن إقلاقه راحتي، وسألني بلهجة رقيقة على قدر ما يسمح له صوته الخشن ـ ماذا أختار للفطور؟... وهذا ما أشاع الرعدة في بدني. إذن سيكون اليوم؟

١٧

سيكون اليوم!

لقد جاء مدير السجن نفسه يزورني. سألني: هل من خدمة يقدمها لي؟ هل ثمَّ ما يستطيع عمله لي؟ راجياً ألاّ شكوى لدي على أحد من مرؤوسيه مؤملاً أن أكون بخير صحة مستفسراً كيف قضيت ليلتي. وناداني بـ «يا سيدي» عندما ودّعني مستأذناً.

سيكون هذا اليوم!

١٨

لا يظننَّ مدير السجن أن لديّ من الأسباب ما يحملني على الشكوى منه أو من معاونيه. الحق بجانبه سيكون غلطة مني أن أشكو، فقد قاموا بواجبهم، وأحاطوني بالرعاية وأسباب الحيطة، فضلاً عن أنهم كانوا مؤدّبين معي عندما حللت في سجنهم، والآن وأنا في طريقي إلى العودة، لِمَ لا أكون راضياً؟

هذا السجّان الطيب، بابتسامته اللطيفة، بكلماته الرقيقة، بعينه الحانية ذات النظر الحديد والرقابة الدقيقة، بيديه الكبيرتين الخشنتين، إن هو إلاّ السجن مجسماً، إنه «بيستر» بجسم إنسان. أرى السجن في كل ما يكتنفني، أرى السجن في كل هيولي، أراه في صورة إنسان، في شباك، في رتاج باب، هذا الجدار نفسه هو السجن بشكل حجارة، هذا الباب هو السجن بشكل خشب، هؤلاء السجّانون هم السجن بلحم وعظم. إن السجن لكائن مرعب كائن طاهر الكمال والتمام غير قابل للتجزئة، نصفه رجل ونصفه منزل وأنا فريسته، يطوقني تطويقاً، يحتويني في غياهبه، يمسكني داخل جدرانه الصوانية، يوصد عليَّ الأبواب بالمغاليق الحديدية والعوارض، يراقبني بعيني حارس يقظ. واه لك من بائس شقي! إلامَ سيؤول أمري؟ ماذا تراهم سيفعلون بي؟

١٩

إني الآن هادئ. لقد بلغنا من المرحلة ختامها وانتهى كل شيء. تغلبت عليَّ الصدمة الفظيعة التي خلّفتها في نفسي زيارة مدير السجن لأني ـ وأعترف بهذا ـ كنت أرجو وأؤمل. . . أما الآن، والحمد للّه فلم يعد لي أي أمل.

إليك جملة ما حصل قبل قليل:

ما إن أعلنت الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين تماماً ـ كلا إنها كانت السابعة إلاّ ربعاً ـ حتى فُتح باب غرفتي ودخل شيخ هرم ذو شعر أبيض وسترة رمادية. فكَّ أزرار جبّته عن «غفارة»[١٨] كهنوتية بيضاء اللون. كان القادم قسّاً ليس قس السجن، وتلك بادرة شرّ.

جلس قبالتي وهو يبتسم ابتسامة ودودة وأحنى رأسه وشخص إلى السماء أو بالأحرى إلى سقف الغرفة البيضوي.

وعيت ما يقصد قبل أن يقوله لي:

---

(١٨) من جملة الألبسة الطقسية الكنيسية يلبسها الكهنة أثناء قيامهم بالشعائر الدينية.

ـ يا بنيَّ أأنت على استعداد؟

أجبته بصوت واهن:

ـ إني لم أستعد لكني حاضر.

وعلى أثر هذا، اظلمَّتِ الدنيا في عينيّ وأخذ العرق البارد ينضح من كل أعضائي. شعرت بأن صدغيَّ يختلجان وأخذت أذناي تدويان.

وفي الوقت الذي كنت أتململ على كرسي كالنعسان، استمر الشيخ الطيب يتكلم، أو على الأقل هذا ما خُيِّل لي، فقد رجح عندي أني أتذكر ملاحظتي شفتيه ويديه تتحركان وعينيه تومضان. فُتح الباب ثانيةً، انتبهنا على أصوات المزاليج، أنا من ذهولي والقس من حديثه. دخل شخص ذو ثياب سوداء مصحوباً بمدير السجن وحيّاني بوقار، كان عبوساً أشبه شيء بأبكم استؤجر للسير وراء جنازة، كانت يده ممسكة بورقة مطوية: قال لي بابتسامة مجاملة:

ـ سيدي، إني المفوض الموفور من قِبل المحاكم النظامية الملكية بباريس ولي الشرف أن أحمل إليك رسالة من قِبل المدعي العام.

استفقت من الصدمة الأولى وعادت إليَّ جميع رباطة جأشي وأجبته:

ـ أهو المدعي العام الذي يطلب رأسي؟ إنه لشرف عظيم أن يكتب إليَّ وأملي أن موتي سينيله أعظم السرور، إذ من المؤسف

حقاً التفكير في أنه كان قد طلب بهذا الإلحاح والشوق شيئاً لا يكترث هو له ولا قيمة له عنده.

بعد أن قلت هذا استطردتُ بصوت حازم:

ـ أتلِه يا سيدي!

بدأ يقرأ لي صحيفة طويلة، مصحوبة بوقفات وفواصل منغومة ملحنة عند نهاية كل سطر، وتلجلج وعثار ما بين كل كلمة. لقد كان القرار برفض الاستئناف الذي قدمته. بعد أن انتهى من قراءة الوثيقة ذات الأختام العديدة استطرد دون أن يرفع رأسه عنها:

ـ سيُنفَّذ الحكم هذا اليوم في ساحة «غريف» وسنبدأ السير في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين بالضبط قاصدين سجن الكونسييرجي. فهل يتكرم سيدي العزيز بالتنازل إلى مرافقتي؟

بقيت عدة دقائق وأنا لا أسمع شيئاً سوى ما نطق به هذا. تكلم المدير مع القس، الذي كان قد حوَّلَ عينيه إلى الورقة. تطلعت إلى الباب الذي بقي موارباً... آه، يا للفظاعة! في الممشى أربعة جنود.

أعاد المفوض سؤاله ناظراً إليَّ هذه المرة، فأجبت:

ـ متى شئت، أنا في خدمتك.

فحياني وقال:

ـ سيكون لي شرف المجيء لأخذك بعد نصف ساعة.

ثم تركوني وحيداً.

هل من سبيل إلى الفرار، يا إلهي؟ بالتأكيد هنالك وسيلة ما! يجب أن أهرب! يجب، وفي الحال! من الأبواب، من النوافذ، من السقف الخشبي، وإن تمزق جسدي بالعوارض! آه يا لجهنم! يا للشياطين! لعنة اللّٰه! إن النفوذ من هذا الجدار سيقتضيني بضعة أشهر ولو كان لي عِدد وأدوات جيدة، وأنا ما عندي حتى ولا مسمار، ولا ساعة واحدة من الزمن.

٢٠

في الكونسييرجي[١٩]

ها أنا ذا بعد أن نُقلت ـ كما يقول التقرير الرسمي، والرحلة تستأهل عناء التسجيل.

كانت الساعة تعلن السابعة والدقيقة الثلاثين حين عاد مفوض الشرطة مرة أخرى ووقف بباب غرفتي وقال:

ـ نحن في انتظارك يا سيدي.

واأسفاه، كان معه أناس آخرون. نهضت، وخطوت خطوة، ولم يكن يبدو عليَّ أني سأستطيع التقدم خطوة ثانية، كان رأسي ثقيلاً جداً، ورجلاي في غاية الوهن، ومع ذلك فقد تحاملت على نفسي وتقدمت بخطى ثابتة نوعاً ما. قبل أن أغادر محبسي تزوّدت منه بنظرة أخيرة، لقد أحببت هذه الغرفة. وهكذا غادرتها خالية مفتوحة، إن ذلك مما يكسب غرفة السجن مظهراً غريباً.

على كل حال، إنها لا تبقى كذلك مدة طويلة، كان منتظراً أن

---

(١٩) هو بناية تقع تحت دار العدل، أي محاكم باريس، كان المحكومون بالموت زمن الثورة يودعون فيه ليرسلوا فيما بعد إلى المقصلة. (الناشر).

تُشغل بأحدهم مساء هذا اليوم حسبما قال أحد السجانين: محكوم بالموت، أو بدأت محكمة الجنايات تبلغه بقرار حكمها عليه في هذه الساعة. لحق بنا القس في منعطف من الممشى، لقد تناول فطوره الآن. شدَّ المدير على يديَّ بحرارة وأنا أغادر السجن ورافق حرسي المؤلف من أربعة شُرط طاعنين في السن. وصرخ رجل في نزعه الأخير أمام المستشفى:

ـ الوداع.

وصلنا الفناء. فصرت أستنشق الهواء النقي وهذا ما أنعشني وأفادني. لم نسر طويلاً في الهواء الطلق، كانت عربة تجرّها خيول مسرجة واقفة في الفناء الخارجي هي العربة التي أقلّتني إلى هذا السجن. إنها لقريبة الشبه بمركبة مستطيلة الشكل، قُسِّمت إلى قسمين بشباك حديدي سميك إلى درجة يحسب المرء أنه نُسج نسجاً، وكان لكل قسم باب، فواحد من أمام والآخر من الخلف. وهي قذرة جداً، قذرة حتى إن عربة نقل الموتى الخاصة بملجأ الفقراء والعجزة تُعتبر عربة ملوكية إزاءها. قبل أن أُدفن في هذا القبر ذي العجلّتين اختلست نظرة إلى الصحن، نظرةِ من تلك النظرات اليائسة التي تبدو كأنها تجعل الجدران تتهاوى، كان صحن السجن وهو ساحة صغيرة مفتوحة تطرزها الأشجار يغص بحشدٍ من المتفرجين يفوق ذاك الذي اجتمع لمشاهدة المحكومين. أجمهور عظيم بهذه السرعة؟

وكمثل اليوم الذي شرعت «السلسلة» في السير، كان المطر يهطل بغزارة كما هو الشأن في مثل هذه الأوقات من السنة،

وما زال مطر ناعم بارد يهطل وأنا أكتب، إنه مداوم على السقوط طول اليوم الذي سيستغرق مني وقتاً أطول من المعتاد.

كانت المياه تمور فوق الأرصفة، والصحن مملوءاً بالوحل والماء. استمتعت برؤية هذا الجمهور غائصاً في الوحل.

دخلنا العربة. واحتل مفوض الشرطة وشرطي واحد القسم الأمامي، واحتللت أنا والقس وشرطي ثانٍ القسم الخلفي، وأحدق بالعربة أربعة فرسان وهكذا ـ من إدخال طبيعة موقفي في الحساب ـ كانوا ثمانية رجال إزاء رجل واحد.

فيما أنا أهمُّ بالدخول صاحت عجوز دردبيس ذات عينين رماديتين:

ـ إني لأفضل رؤية هذا حتى على المحكومين بالأشغال الشاقة في أحواض السفن.

فهمت، إنه منظر يمكن للمرء أن يستوعبه بنظرة واحدة بزمن قصير، وسهولة أكثر، بنظرة واحدة، بأسرع من ومضة. إنه لمحكم ومثير، وليس ثمَّ ما يشغلك عنه ففيه شخص واحد ليس إلا. في هذا المشهد من البؤس والإيلام ما يعادل ما في المحكومين كافة لو وضعوا معاً.

سارت العربة، وجلجلت عندما مرّت تحت القنطرة المبنية فوق الباب الأكبر ثم انطلقت في الشارع وأوصدت أبواب «بيستر» الثقيلة خلفها. شعرت بالنوم يغالبني كرجل راح في غيبوبة وما عاد يقوى على الحركة أو الكلام لكنه بقي مدركاً أنهم يهمّون بمواراته

التراب. أصغيت وأنا في غشيتي إلى رنين الأجراس المعلقة في أعناق الجياد المسرجة وهي ترنُّ بإيقاع منتظم وكانت عجلات المركبة الحديدية تقعقع حين تصطدم بحافة الطريق المرصوف، تخرج من نقرة لتدخل في أخرى، ثم أرهفت سمعي إلى الضجيج الذي يبعثه خبب الجياد في كل جانب من العربة، ثم تناهى إليَّ فرقعة سوط الحوذي. كل ذلك كان يبدو لي أشبه بعاصفة تدور بي كالدوامة.

من ثقب ضيّق في الشباك أرسلت بصري محملقاً بصورة آلية في الكناية المحفورة ذات الأحرف الكبيرة فوق المدخل الأكبر لسجن «بيستر».

«دار العجزة والشيوخ» وقلت لنفسي:

ـ إذاً يبدو أنه يوجد هنا بعض الأناس الطاعنين في السن.

وبقيت ـ كما يفعل المرء وهو بين التهويم والنوم - أقلب هذا الأمر في فكري، وفجأة اختلفت المناظر من الثقب الذي كنت أنظر منه باستدارة العربة وانعطافها إلى الشارع العام من الطريق الفرعي، وبدت أبراج كاتدرائية «نوتردام» وهي زرقاء معتمة في ضباب باريس داخل هذا الثقب الذي صار كإطارٍ لها، في تلك اللحظة تغيّر اتجاه النظر في داخل فكري وأفسحت أفكاري عن بيستر محلاً لأفكاري الجديدة عن أبراج «نوتردام» فقلت لنفسي مبتسماً ببلاهة:

ـ إن مجال الرؤية هو جيد جداً للناس الذين اتفق أنهم سيوجدون في البرج حيث سيُرفع العلم.

يغلب على ظني أن القس بدأ يكلمني في تلك اللحظة، تركته يفعل وأنا صابر، ما زلت أسمع صدى قرقعة العجلات ووقع سنابك الخيل وسوط الحوذي وكان أعلى الأصوات.

أصغيت إلى سيل ممل من الكلمات التي هدّأت خاطري كرقرقة ينبوع ماء يقذف بمائه أمامي، متغيّر على الدوام، ثابت على الدوام كشجرات الدردار المفتولة النابتة على طريق لاحبة، عندما أيقظني فجأة صوت مفوض الشرطة المتلجلج الأجش وكان جالساً في القسم الأمامي قال بلهجة الرجل الذي ينوي الثرثرة:

ـ آه حسناً يا سيدي الأب ما وراءك من أخبار؟

والتفت إلى القسّ أثناء ما كان يتكلم. بيد أن القس الذي استمر يكلمني وقد منعته ضوضاء العربة من سماع المتكلم، لم يجبه، فاستطرد الضابط رافعاً صوته ليعلو على صوت العجلات:

ـ قبَّحها اللَّه من عربة شيطانية.

ـ شيطانية حقاً.

استطرد يقول:

ـ إنها تميد بنا كما ترى، ومن الصعب أن يسمع المرء شيئاً، ماذا كنت أقول؟ قل لي يا سيدي الأب ماذا كنت أقول؟ أن نعم! أتدري ما أهم الأنباء عن باريس اليوم؟

شاعت في بدني قشعريرة إذ ظننتُ أنه يعنيني بذلك.

أجاب القس الذي سمع كلام المفوض بالأخير:

ـ كلا لم يكن لي وقت لقراءة الصحف هذا الصباح،

سأتصفحها مساء اليوم. فعندما أكون مشغولاً كهذا اليوم أعمد في توصية البواب بحفظ صحفي لأقرأها بعد أوبتي إلى المنزل.

فردَّ عليه مفوض الشرطة:

ـ أفّ! لا أصدق، لا بدَّ أنك سمعت أنباء باريس، هذا الصباح..

كنت أنا الذي تكلم بعده، قلت:

ـ أراني أعرف الأنباء.

تطلّع إليَّ مفوض الشرطة وقال:

ـ أنت حقاً! إذن ما رأيك فيها.

قلت له:

ـ لماذا أنت متلهف بهذا القدر؟

أجابني مفوض الشرطة:

ـ لماذا يا سيدي؟ لكل شخص رأيه السياسي. إني لأجلُّ قدرك من أن لا تملك وجهة نظر خاصة. أنا مثلاً من محبذي إعادة تشكيل الحرس الوطني، كنت عريفاً في الفصيل، وصدّقني إني قضيت أطيب الأوقات.

قاطعته قائلاً:

ـ ما فكرت في أن هذه هي الأنباء المهمة.

ـ إذن ما هي؟ ذكرت أنك تعرفها.

ـ كنت أقصد شيئاً آخر به اليوم باريس مهتمة.

لم يفهم الغبي معنى كلامي لكن ثار فيه الفضول فقال:

ـ أنباء أخرى غير هذه؟ كيف توصلت إليها بحق إبليس؟ ما هي يا سيدي العزيز؟ تعرفها أنت يا سيدي الأب؟ آأنت أخبر بها مني؟ أرجوك قل لي ما هي الأنباء؟ ماذا يحدث؟ إني كما ترى أرغب في معرفة جميع الأنباء لأنهيها إلى سيدي رئيس المحكمة وهذا ما يبهجه.

وقال أشياء لا تحصى من الإشاعات التي لا أصل لها.

التفتَ إلى القس أولاً ثم إليَّ، لكني لم أردّ عليه إلاّ بهزةٍ من عطفي. قال لي:

ـ حسناً، بماذا تفكر.

ـ أفكِّر في أني لن أستطيع التفكير هذا المساء.

فأجاب:

ـ آه أهذا كل شيء هيا هيا لا تكن خائر القلب إن السيد كاستين كان يتكلم...

ثم قال بعد صمت:

ـ صحبت السيد «بابافوان» وكان لابساً قبعة من الفراء وهو يدخن سيكاراً. وأما عن شبان «روشيل» الأيفاع فقد كانوا يتحدثون فيما بينهم فقط، كانوا يتحدثون وكفى.

سكت برهة ثم استطرد:

ـ المجانين المهووسون كانوا في الظاهر يزدرون العالم كله.

أما بالنظر إلى ما اقترفت أيها الشاب الصغير فإني أراك كثير الهمّ.

فالتفتُّ:

ـ شاب صغير! إني أكبر سنّاً منك. فكل ربع ساعة تمر عليَّ تضيف إلى عمري سنة واحدة.

التفت وحدجني ببصري بضع ثوان بدهشة بليدة ثم بدأ يقهقه ضاحكاً ويقول:

ـ ماذا، إنك تمزح، أكبر مني سناً؟ لقد بلغت سنّ جدّك.

قلت بأسى:

ـ إن لا أمزح.

فتح لي صندوق تبغه وقال:

ـ تفضّل يا سيدي العزيز، ولا تغضب، إليك قطعة من التنباك، لا تستأمني.

ـ ما عليك بهذا، فلن أكون في صحبتك مدة طويلة.

في الوقت الذي قدم لي صندوق تبغه من خصاص الشباك الذي يفصل بيننا مادت بنا العربة وارتجت فاهتز اهتزازاً عنيفاً وسقط الصندوق المفتوح عند قدمي العسكري، فصرخ:

ـ لعنة اللّه على الشباك.

ثم التفت إليّ:

ـ انظر. أما أنا سيئ الحظ؟ لقد ضاع تبغي.

أجبته باسماً:

ـ إني سأخسر أكثر منك.

حاول أن يجمع تبغه وهو يغمغم بين أسنانه:

ـ أكثر منك! ما أسهل هذا القول، إنه أحسن تبغ في باريس كلها. يا للمصيبة!

وجّه القس إليه بضع كلمات تعزية. وما أدري أكنت منصرفاً كليةً إلى أفكاري الخاصة، على أن هذه الكلمات رنَّت في أذني كأنها خاتمة النصح والعزاء التي سمعت بدايتها. وبالتدريج ازدادت المناقشة المستمرة بينهما حرارة فتركتهما يتحدثان معاً في أمورهما الخاصة واستسلمت لأفكاري. كنت غارقاً في أفكاري هذه، عندما وصلنا مدخل المدينة، ولكن باريس بدت لي أكثر ضوضاءً من المعتاد.

وقفت العربة دقيقة فخرج رجال الگمرك لفحصها لو كان ما تحتويه شاة أو ثوراً مقاداً إلى المجزرة لكلفوا صاحبها بدفع ملء كيس من الفضة، ولكن رأساً واحداً من بني البشر، لا ضريبة عليه ولذلك أفسح لنا السبيل فمررنا.

ما إن جزنا «المخرف»[٢٠] حتى دبّت الحركة في خيل الموكب وصارت تعدو بنا خبباً في شوارع فوبرغ وسانت مارسو ولاسيتي ذات المنعطفات الكثيرة، كانت تتعامد وتتقاطع بعضها مع بعضها الآخر كأنها دروب بيوت النمل. وتعاظمت قعقعة عجلات المركبة باحتكاكها بأرصفة هذه الأزقة الضيقة حتى ما

---

(٢٠) الطريق المشجر، على الرصيفين (المترجم).

عدت أسمع شيئاً من أصوات الخارج. وعندما تطلعت من الفتحة الضيقة المربعة خُيِّلَ لي أن سيل المارة قد انقطع ووقفوا جميعاً ليحدجوا الموكب بأعينهم، وبدا لي أن جماعات من الصبيان كانوا يتراكضون وراءه. خُيِّلَ لي أيضاً أني رأيت هنا وهناك بين آن وآخر رجلاً عجوزاً درداء بأسمال وخِلَق، وأحياناً اثنان منهم يبيعان بطائق مطبوعة كان المارة يتخاطفونها وهم يتصايحون ويزعقون بأعلى الأصوات. دقت ساعة القصر معلنة الثامنة والدقيقة الثلاثين في تمام بلوغنا ساحة الكونسييرجي. إن منظر الدرج العظيم، والكنيسة السوداء والمداخل ذات المنظر المقبض، كل ذلك جعلني أقشعرّ.

عندما وقفت العربة حسبت أن قلبي توقف عن الخفقان هو أيضاً لكني لممت أطراف نفسي. وفُتح الباب بأسرع من البرق، قفزت من سجني المتحرك، ودُفعت بسرعة إلى الأمام. مرّوا بي من باب ذي طاق بين صفين من الشرطة. كان قد احتشد جمهور كبير على الجانبين وأنا أسير.

٢١

بينما كنت أسير خلال المقصورات العامة لدار العدل، شعرت كأني حرٌّ تقريباً خالي البال من الهمّ لكن جَلدي خانني تماماً عندما فتحوا الأبواب السفلى المفضية إلى الأنفاق السرية والدهاليز التحتية والممرات الطويلة العفنة تحت الثرى، لا يسير فيها إلاّ مَن يوشك أن يُحكم عليه بالموت أو مَن حُكم عليه به.

كان مفوض المحكمة يرافقني، أما القسّ فقد غادرني ليأتي بعد ساعتين. فقد كان لديه ما يجب أداؤه. أُخذت إلى دائرة المدير فتركني المفوض. كان موضوع تسليم وتسلُّم. ورجا المدير المفوض أن ينتظر هنيهة قائلاً إنه يسلّمه لعبة ما (سجيناً) لأخذه في الحال إلى «بيستر» في الموكبة العائدة، لا شك أنه الرجل الذي حُكم عليه بالموت هذا اليوم، وسينام هذا المساء على حزمة القش التي لم يكن لديّ الوقت الكافي لأستلقي عليها.

قال مفوض المحكمة للمدير:

ـ حسن جداً، سأنتظر برهة، بإمكاننا أن نكمل تقريرينا الرسميين في آن واحد. سيكون ذلك جد مناسب.

وانتظاراً لذلك وضعوني في غرفة صغيرة قريبة من مكتب

المدير، تُركت وحيداً وأوصد الباب عليَّ بإحكام ودقة، لم أدرِ بما كنت أفكّر، لم أدرِ كَمْ أُبقيت هناك، عندما صك أذني انفجار قهقهات راعدة مفاجئة أيقظتني من شرودي الذهني.

رفعت نظري وأنا أرتجف. لم أعد وحيداً في هذه الغرفة، كان معي رجل، رجل في حدود الخامسة والخمسين، متوسط القامة، أشيب الشعر، مقوس الظهر، عميق غضون الوجه، قصير الأطراف، في نظرات عينيه شر، وعلى وجهه ابتسامة تهكم، قذر رث الثياب، شبه عار. كان منظراً تعافه النفس. يبدو أن الباب فُتح وقُذف به إلى الداخل ثم أوصد ثانية في غفلة مني، فآه لو جاءني الموت هكذا!

بحلق أحدنا بالآخر عدة ثوان ثم أطلق ضحكات عالية كحفيف الموت. خفت منه وعجبت له في آن واحد، وأخيراً سألته:

ـ مَن أنت؟

أجاب:

ـ يا للسؤال المضحك! أنا «ڤريانش».

ـ «ڤريانش»؟ ماذا تعني بهذا؟

يبدو أن هذا السؤال زاد من انشراحه. قال وهو وسط قهقهة راعدة:

ـ معنى هذا أن القول (الجلاد) سيلعب برأسي في ستة أسابيع كما هو يزمع أن يلعب بجسمك بعد ست ساعات. ها! ها قد بدأت تفهم ما أقصد.

شحب وجهي وقفَّ شعر رأسي. إنه المحكوم الآخر الذي ينتظر مجيئه بعدي إلى بيستر. إنه خَلَفي. واصل القول:

ـ ماذا كنت تنتظر؟ سأحدثك بقصتي:

«إني ابن أحد الأوغاد شيء مخزٍ لكن «شارلوت»[٢١] تكلّفَتْ عناء تجريده من ربطة عنقه حين كانت السكين جد قوية بنعمة اللّه تعالى. بلغت السادسة فوجدت نفسي يتيم الأبوين؛ كنت في الصيف أكنس غبار الطرقات لعل أحداً من الناس يرمي إليّ بفلس من نافذة العربات وفي الشتاء أخوض الوحل عاري القدمين وأنا أنفخ في يديّ المحمرّتين برداً. إنك لتستطيع أن ترى فخذيّ العاريين من ثقوب سروالي. وفي سن التاسعة بدأت أعتمد في معيشتي على خفة يدي، كنت بين الفينة والفينة أنشل ما في الجيوب وأسرق معطفاً. وفي العاشرة صرت نشالاً، ثم تعرفت بأشخاص آخرين، وفي سن السابعة عشرة صرت لصاً، اقتحمت دكاناً وحطمت أقفالاً. قُبض عليَّ؛ وكنت آنذاك في سنّ مناسبة فأرسلت للتجديف في السفن، كانت عقوبة الأشغال الشاقة صعبة عليَّ. إنك لتفترش الأرض ولا تشرب غير الماء وتأكل الخبز الأسود، وتسحب سلسلة سخيفة في نهايتها كرة معدنية لا فائدة منها، تُقاسي ضربات السياط مع ضربات الشمس.

هناك جلظ رأسي بالموسى، وكنت فخوراً بشعري الكستنائي

---

(٢١) أي الجلاد.

الجميل. على كل حال قضيت مدة سجني، خمس عشرة سنة انتهت أخيراً! بلغت الثانية والثلاثين، وفي أحد الأيام الجميلة أعطوني بطاقة التخلية مع ستة وستين فرنكاً كسبتها من عملي في قاع السفن مدة خمسة عشر عاماً، أشتغل ست عشرة ساعة في اليوم، وثلاثين يوم في الشهر واثني عشر شهراً في السنة. كل هذا لا يهم، كنت أريد أن أرجع إنساناً سوياً صالحاً بهذه الفرنكات الستة والستين. وكان يوجد تحت أسمالي البالية من العزم والتصميم ما لا يوجد مثله تحت جُبّة الكاهن. لكن ماذا فعلت الشياطين والأبالسة من الخنا بجواز سفري! كان الجواز أصفر اللون كتبوا عليه هذه الكلمات:

(محكوم بأحواض السفن أُطلق سراحه!)

والواجب يفرض عليَّ في هذه الحالة أن أبرزه أينما حللت: وأن أذهب به أسبوعايّ إلى عمدة المدينة الصغيرة التي سأسكنها جبراً؛ شهادة عظيمة!

محكوم!

كان مرآي يخيف الناس، فالأطفال يهربون من أمامي حالما يرونني ويغلقون الأبواب وراءهم ولم يكنْ أحد يكلفني بعمل. وسرعان ما أتيت على فرنكاتي الستة والستين وكان عليَّ أن أعيش بعد ذلك.

عرضت ساعدي القويين المستعدين للعمل، عرضت أن أشتغل يوماً بطوله لقاء عشرة صولديات، ثم رضيت بخمسة،

فلم يُفتح عليّ. فماذا أفعل؟ في يوم وجدت نفسي جائعاً. دفعت بمرفقي إلى نافذة مخبز، قبضت على رغيف خبز، فقُبض عليَّ، ولم أتبلغ بالرغيف؛ فأُرسلت إلى السفن محكوماً بالأشغال الشاقة مدى الحياة ـ بثلاثة أحرف وسموها بالنار على كتفي ـ سأريكها إذا شئت؛ هذا النوع من العدالة يسمّى (عود إلى الإجرام)، وهكذا عدت إلى السفن مرة ثانية.

عدت إلى (طولون) هذه المرة، مع الآبدين. شعرت بأني مدفوع دفعاً إلى تلمُّس الفرار، ولأجل تنفيذ ذلك كان عليَّ أن أثقب ثلاثة جدران وأقطع سلسلتين؛ وليس في حوزتي من الأدوات غير مسمار. هربت فأُطلق مدفع الإنذار، لأننا بأرديتنا الحمر أشبه بكرادلة روما إذا خرجنا حُيينا بإطلاق مدفع.

لكن البارود ذهب إلى العصافير، لم يكن لدي جواز سفر أصفر هذه المرة، ولكن لا نقود. لقيت عدة شركاء ممن كانوا قد قضوا مددهم أو هربوا مثلي. وسألني «رأس الرؤوس» هل أرغب في الانضمام إليهم ـ وكلهم قطاع طُرق وقتلة ـ فوافقت وبدأت أقتل لأعيش، فأحياناً تكون الضحية «حامل مذراة»[٢٢] وأحياناً مركبة سفر، وأحياناً تاجر ماشية راكباً حصاناً. كنا نأخذ النقود ونخلي سبيل الحيوانات. نترك

---

(٢٢) أي الفلاح.

المركبة ونواري الرجال التراب تحت الشجرة، آخذين حذرنا أن لا تبرز أقدامهم ثم ندكُّ العشب دكاً شديداً حتى لا تبدو الأرض منبوشة حديثاً. وتقدمت بي السن وأنا على هذه الحال أعيش بين أشجار الغاب وأنام تحت النجوم المتلألئة أنتقل من غاب إلى أخرى بيد أني كنت حراً سيد نفسي.

ولكن لكل شيء نهاية كالراحة بعد العناء. ففي ليلة رائعة الجمال قبض عليَّ العسس، هرب رفاقي لكنني ـ أكبرهم سناً ـ تُركت بين مخالب هؤلاء قطط المدينة العجائز بشرائطهم الذهبية المقصّبة. جاؤوا بي إلى هذا المكان. لقد ارتقيت كلّ درجة من درجات السلم إلاّ واحدة، وسواء أجرمت (سرقت) أو قتلت رجلاً فالنتيجة هي هي من الآن فصاعداً.

عاملوني كمجرم عائد فليس لي إلاّ أن أُسلَّم إلى يد الجلاد. كانت محاكمتي قصيرة الأمد. الحق أني أتقدم في السن ولم أعد صالحاً للمستقبل، تزوج أبي «بأرملة»[٢٣] وأنا الآن أوشك أن أعتزل في «دير الأحزان»[٢٤]، والآن هذه هي قضيتي يا رفيقي».

قال لي:

ـ أيها الرفيق يبدو أنك لا تملك الشجاعة الكافية. لا تكن

(٢٣) أي المشنقة.

(٢٤) أي أطاحت المقصلة برأسه.

جباناً في مواجهة الموت، ألا ترى إنها لحظة سيئة تلك التي ترتقي فيها سلّم المقصلة لكنها لحظة سريعة جداً، تمنيت لو كنت أنا هناك لأريك كيفية السقوط. أقسم بألف إله إنه لو وافقوا على تقديمي إلى المقصلة معك اليوم لرغبت عن تقديم استئناف آخر، إن قسّاً واحداً يكفي لكلينا، لن أهتم لو سبقتك إلى التوديع. أنظر إني لست وغداً، ماذا تقول، ألا تقبل؟ صدقني.

وللمرة الثانية تقدم خطوة نحوي.

أجبته قائلاً وأنا أدفعه:

ـ سيدي! إني أشكرك.

فدوّى صوته مقهقهاً لردّي هذا:

ـ ها ها يا سيدي! إذن فأنت مركيز! أجل مركيز!

قاطعته:

ـ يا رجلي الطيب إني أريد أن أستجمع أفكاري، فدعني وحدي.

جعلته صرامة عبارتي يستغرق في التفكير. فجأة هزّ رأسه الأشيب الأصلع تقريباً. ثم غرز أظافره في صدره الأشعر الذي كان عارياً تحت قميصه المفتوح.

تمتم بين أسنانه:

ـ آه فهمت، رئيس السماء (القس)!

ثم قال متلعثماً بعد حوال بضع دقائق من الصمت:

ـ إنك مركيز، وهذا حسن. إنك تملك سترة رسمية جميلة

ستكون ذات فائدة لك وسيأخذها (التول) فأعطنيها وسأبيعها وأشتري بثمنها تنباكاً.

خلعت سترتي وأعطيته إياها فانتابه فرح صبياني وأخذ يصفق ثم لاحظ أني بقيت في قميص وأني أرتجف برداً، فقال:

ـ سيدي أنت مقرور ضع هذه عليك، إن المطر يهطل وسوف تبتلّ، فضلاً عن ذلك يجب على المرء أن يكون حسن الهندام في العربة.

خلع سترته الكتانية الخشنة الرمادية ودسّ ذراعيَّ في كمَّيها بها فتركته يفعل، ثم اتكأت على الحائط. لا أستطيع وصف التأثير الذي خلّفه فيَّ هذا الرجل. بدأ يتفحص السترة التي وهبتها له ليطلق بين الفينة والفينة هتاف الفرح:

ـ الجيوب في غاية الجِدة! الياقة لم يصبها التحات! إنها تساوي خمسة عشر فرنكاً على أقل تقدير. أي ضربة حظ هذه! كفاية من التنباك لأسابيعي الستة!

فُتح الباب، لقد جاؤوا ليأخذونا نحن الاثنين، ليأخذوني إلى الغرفة التي ينتظر المحكومون بالموت دنو ساعتهم وهو ليأخذوه إلى «بيستر». احتل مكانه ضاحكاً بين جماعة الحرس الذين سيقودونه خارجاً وقال لهم:

ـ آه انظروا إلى هذه! ولا تتوهموا فقد تبادلنا سترتينا أنا وهذا السيد. لا تخالوني إياه بحق إبليس، فما لم يعد يقلقني الآن، هو توفير بعض مال أشتري به تبغاً.

٢٢

هذا المجرم الشيخ، أخذ مني سترتي ولم أعطه إيّاها، تركني مشتملاً بهذه الخرقة القديمة: سترته القذرة، كيف سيكون مظهري بها؟

لم أدعه يأخذ سترتي بسبب عدم اهتمامي أو لرغبتي في التصدق بها، كلا بل لكونه أقوى مني ولو رفضت لضربني بقبضتيه الكبيرتين.

صدقة حقاً، كانت الأفكار الشريرة تملأ رأسي، ورغبت في خنق هذا الحرامي الشائب بكلتا يديّ ثم سحقه تحت قدمي.

اصطخبت شتى مشاعر الحنق والغضب في أعماق نفسي. شعرت بأن قلبي سينفجر حقاً. إن الموت يجعلني إنساناً شريراً.

وضعوني في غرفة ما بها إلاّ أربعة جدران وعوارض حديد لا تُحصى فوق النوافذ وأوصدوا عليَّ باباً ذا أقفال كثيرة و... لنضرب صفحاً عن كل هذا.

طلبت منهم منضدة وكرسياً وأدوات كتابة فجاؤوني بها.

طلبت فراشاً، فنظر إلى الديدبان مشدوهاً كأنه يريد أن يقول لي:

ـ وما حاجتك به ليت شعري؟

وعلى كل، فقد أتوني بمطرح مطوي وفرشوه في زاوية. لكن أقبل معه جندي وسمّر نفسه فيما سرهم أن يطلقوا عليه اسم الغرفة. من الواضح أنهم يخشون أن أعمد إلى خنق نفسي المخدة.

٢٣

السـاعة العاشرة!

واه لك يا بنيَّتي الشقية! لم يبق إلاّ ستُّ ساعات وأكون في عالم الأموات، سأكون شيئاً قذراً مرمياً على بلاط المدرج البارد، سأكون رأساً يرمونه إلى جانب وجذعاً يُفصل إلى جانب ثم يُلقى بهذه الفضلات في تابوت وتحمل الرفات إلى «كلامار».

هذا ما سيفعلون بأبيك، هؤلاء الرجال الذين لا يحقدون عليَّ، الذين يشفقون عليَّ جميعهم، ويستطيعون إنقاذي، هم قتَلَتي، أتفهمين ذلك يا ماري؟ يقتلونني بكل برود، وبصورة عادية، لا عينٌ تطرف لهم ولا جفن، آه يا ربي العظيم.

طفلتي الصغيرة البائسة!

أبوكِ الذي يحبّك غاية الحب، أبوكِ الذي اعتاد أن يلثم عنقك الحلو الصغير الناصع البياض، الذي كانت يداه تعبث دوماً بخصلات شعرك الحريري، أبوكِ الذي اعتاد أن يربت على وجهك المستدير الجميل، الذي اعتاد أن يهشهشك على ركبتيه ويشبك يديه مع يديك الصغيرتين لتلاوة صلاة المساء! مَن سيقوم عني بكل ذلك؟ مَن بقي لك يمحضك الحب؟ كل الأطفال الذين

في سنك لهم آباء ما عداك، كيف ستعتادين يا طفلتي في عيد رأس السنة أن تبقي بدون هدايا ولعب جميلة وحلوى وقبلات، كيف ستعوّدين نفسك أيتها اليتيمة الصغيرة المنكودة ألاّ يكون لديك ما تأكلين وتشربين؟ آواه لو رأت هيئة المحلفين صغيرتي الجميلة ماري، لعلمت لماذا يتحتم عليها ألاّ تصدر حكمها بقتل أب لطفلة في الثالثة من عمرها.

وإذا كبُرَت ـ لو عاشت فإلامَ سيؤول أمرها؟ سيكون أبوها من ذكريات الباريسيين، وسيركبها العار، وستخجل لمجرد ذكر اسمي، ستُزدرى، ستُنبذ من جرائي أنا الذي أحبها بكل ما في قلبي من حنان، آه يا حبيتي الصغيرة. ماري! أصحيح أنك ستفكرين بي مشمئزة خجلى؟ يا لي من أشقى البائسين، ما أعظم الذنب الذي اقترفته، ما أعظم الذنب الذي سأجعل المجتمع يقترفه!؟

آه أصحيح أني سأموت قبل أن ينتهي هذا اليوم.

أصحيح أني أنا وليس غيري.

الهمسات التي أسمعها من الخارج، ذلك الجمع من القوم الجذلين الذين صاروا يتجمعون في الثكنات، هؤلاء الشرطة الذين احتلوا مواضعهم المرسومة، ذلك القس في جبته السوداء. الرجل الآخر بيديه الحمراوين. كل ذلك يتم لأجلي أنا، أنا الذي يشرف على الموت، أنا نفسي الشخص الموجود ها هنا، الذي يعيش ويتحرك ويتنفس، الجالس على منضدة هي كغيرها من المناضد، أنا الذي يلمس ويشعر، أنا الذي تقوم ثيابه بعمل هذه الطيات.

٢٤

لو عرفت فقط كيف يؤدون المهمة، بأي طريقة يموت المرء هناك، على أنها فظيعة. لأنني لا أدري كيف تتم.

إن اسم ذلك الشيء مخيف وإني لأشعر بعجزي التام في هذه اللحظة عن كتابته أو التلفظ به.

إن تشكيل هذه الأحرف العشرة، مظهرها نفسها منظرها فقط، يثير في ذهن المرء بالتأكيد فكرة الموت، إن دكتور الشر الذي اخترع هذا الشي كان اسمه مكتوباً في لوح القدر. الصورة التي تستحضرها هذه الكلمة البشعة للذهن هي صورة غامضة مبهمة مشؤومة، كل مقطع من الكلمة شبيه بجزء من الآلة. بقيت مكباً على تشييد وتركيب قطع هذا البنيان المخيف[٢٥].

إني لا أجرؤ على إلقاء أي سؤال عنها ولكن من الشناعة ألاّ تعرف حقيقتها بالضبط ولا كيف تشتغل، يبدو أنها نوع من العتلات يضعونك فوقها وأنت منبطع.

ـ آه سيشيب شعري قبل أن يسقط رأسي!

---

(٢٥) يقصد الكيوتين واللفظة مؤلفة من عشرة أحرف. انظر الهامش (٥).

٢٥

رأيتها مرة واحدة.

كنت ماراً بساحة «غريف» يوماً في مركبة حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً. وعلى حين غرّة وقفت بي المركبة.

كان ثمَّ حشد من الناس. أخرجت رأسي من النافذة وكتل الناس تموج وقد ملأت الساحة والشوارع المجاورة رجالاً ونساءً، بينما صعد الأطفال والصبيان على الأعمدة والعوارض، وكان المرء يرى من فوق رؤوسهم نوعاً من المنصة مصنوعة من خشب أحمر وأن ثلاثة رجال قد ارتقوها.

كان مقرراً أن يُعدم ذلك اليوم مجرم محكوم بالموت وأنهم يركِّبون المقصلة.

أشحت بوجهي إلى الجهة الأخرى ولم أنظر إليها، سمعت امرأة كانت واقفة قرب مركبتي تقول لصبيها:

ـ انظر إليها، إن السكين لا تسقط كما يجب، لذلك فهم سيقومون بدهن المفاصل بعقب شمعة.

ربما كان هؤلاء الناس هناك اليوم، الآن دقت الساعة الحادية عشرة. إنهم بلا شك يدهنون المفاصل.

آه هذه المرة لن أستطيع الإشاحة بوجهي عنها، فيا لتعاستي!

٢٣

آه، العفو عني، العفو عني!

ربما أصدروا عفواً عني! إن الملك لا عداء له معي. ألا يذهب أحدهم ويجيء لي بمحامي؟ أرسلوا بطلب محامي على التو! إني أُفضل الأشغال الشاقة، خمس سنوات أشغال شاقة (بعدما قِيل كل شيء وتمّ كل شيء) أو فلتكن عشريناً أو فلتكن مدى الحياة مع وسم الحديد المحمّى، أبقوا على حياتي فقط.

إن المحكوم بالسجن يستطيع على كل حال المشي، المجيء والذهاب، إنه ليستطيع أن يرى الشمس.

٢٧

كرَّ القسُّ عائداً.

إنه أبيض الشعر، رؤوف القلب، مشرق الوجه بالحنان، هو في الحقيقة رجل خير وإحسان. رأيته صباح هذا اليوم يفرغ كيس نقوده في أيدي السجناء. فكيف لا يحرك صوته العواطف، كيف لا يوجد فيه رقّة؟ كيف كان القس لا يقوى على التلفظ بشيء يروق لخاطري وقلبي؟ كانت أفكاري في هذا الصباح شاردة فلم أسمع ما كان يقول لي وبدت كلماته من قبيل العبث الباطل إذ لم تخلّف فيَّ أي تأثير. إنها كانت تسقط كالمطر البارد على نافذة متجمدة.

عل كل حال، أثرت عودته فيَّ تأثيراً حسناً. قلت لنفسي إنه الوحيد من بين جميع الرجال الذين يحتاطوني الآن ـ الذي قد يكون ذا عون لي. لقد أثار فيَّ شوقاً محرقاً للخير ورغبة بكلمات العزاء لا تُقاوم.

كنا جالسين: هو على كرسي وأنا فوق الفراش، قال لي:

ـ يا بنيَّ!

هاتان الكلمتان مسَّتا شغاف قلبي.

استطرد يقول:

ـ يا بني أأنت مؤمن باللّه؟

أجبته:

ـ نعم يا أبت.

ـ هل تؤمن بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية الرسولية المقدسة؟

ـ بطيبة خاطر إن كان هذا يسرك.

استمر يقول:

ـ يبدو لي يا ولدي أن لديك بعض الشكوك.

ثم بدأ يتحدث إليَّ. تكلم مدة طويلة، قال أشياء كثيرة، وعندما بدا أنه أنهى مقاله، نهض واقفاً وقال وهو ينظر إليَّ للمرة الأولى منذ بدء خطابه:

ـ فلأذهب إذن!

احتججت بأني أصغيت إليه أول الأمر بشوق ثم باهتمام ثم بهيام خالص. نهضت بدوري وقلت له:

ـ سيد اتركني وحدي أتوسل إليك.

فسألني:

ـ متى سأعود؟

ـ سأعلمك بذلك.

فخرج بدون أن ينبس ببنت شفة، يهزّ رأسه كأنما يقول:

ـ رجل كافر!

لكن لا، فإني وإن كنت قد هبطت إلى الحضيض لست بما وصفت، واللّه شاهد بأني مؤمن به. ولكن ماذا قال لي ذلك الرجل العجوز؟ لم يقل شيئاً من صميم القلب مؤثراً، لا شيء رقيقاً لا شيء يحرِّك النفس لا شيء مما يخرج من قلبه يمس قلبي، لا شيء منه إليَّ، بل بالعكس شيء مبهم لا معنى له يناسب الكل، أي فرد. إنه متعمل من حيث يجب أن يكون عميقاً، مملّ من حيث يجب أن يكون بسيطاً. نوع من موعظة عاطفية وأطروحة لاهوتيةِ، تطرزها هنا وهناك شواهد ومقتبسات من اللاتينية، شيء من القديس أوغسطين، وربما من القديس غريغور أنّى لي أن أعرف؟ ثم زيادة على ذلك فقد خلّف انطباع مَن يتلو درساً كان قد أبداه وأعاده عشرين مرة. مقالة محت من مخيلته نظراً لمعرفته إياها معرفة جيدة.

لم يرف جفناه أقل رفة ولم يعتور صوته أقل تهدُّج ولم تأتِ يده بأقل حركة.

وكيف يمكن أن يكون غير ذلك؟

هذا القس هو راعي السجن المختص، ووظيفته هي إدخال العزاء وبذل النصيحة، تلك وسيلة عيشه والمحكومون والمرضى هم الذين يوحون له ببلاغته. إنه ليسمع اعترافاتهم ويساعدهم لأن مركزه يقتضيه هذا العمل. لقد طعن في السن وهو يقود الناس إلى حتفوفهم. لقد أصبح بتعاقب الأيام متمرداً على ما يجعل غيره من

الناس يرتجفون رعباً. فشعره المرشوش بالمسحوق لم يعد يقف، والسجن ومناظر الموت من المناظر المألوفة التي يشاهدها كل يوم.

لقد أُتخم بهذه الأمور، وربما جعل دفتر جيبه أقساماً: فصحائف منه للمحكومين بالسجن وصحائف أخرى للمحكومين بالموت. إنه ليخبر في ليلة ما بوجود مَن يجب أن يواسيه صباح اليوم التالي، في الزمن الفلاني والساعة الفلانية، فيسأل ما صفته؟ أسجين أم محكوم بالموت؟ فيعيد قراءة الصحيفة ثم يأتي وهذا ما يحصل: أولئك الذين يذهبون إلى قلعة المحكومين في طولون، وأولئك الذين يذهبون إلى ساحة غريف، هم سواء وأشباه بالنظر إليه لا فرق عنده بينهم.

آه لو استطاعوا أن يجدوا لي راعي كنيسة أو قساً طاعناً في السن؟ أي قس، أي قس يعثرون عليه، لو دعوه من داره ـ أثناء ما هو يقرأ كتابه غير متوقع هذه الدعوة ـ قائلين له: «هناك إنسان سيلاقي حتفه وواجبك أن تعزيه وعليك أن تكون هناك عندما يوثقون يديه، ويجزون شعره، أن ترافقه مع صليبك في العربة، أن تحميه من الجلاد، يجب أن تهتز معه كلما اصطدمت العربة بصفاة وهو في طريقه إلى ساحة غريف، يجب أن تكون معه وهو يمرّ بين الجماهير المربعة العطشى لدمه. عليك أن تلثمه وهو على قدمي المقصلة وتبقى معه حتى يسقط رأسه وتسقط جثته هناك. ثم يجب عليهم أن يأتوني به وقد اصطخبت فيه الأحاسيس ليقبل مرتجفاً من رأسه حتى قدميه، فأرمي بنفسي في أحضانه وأعتنق

ركبتيه، فيبكي ونبكي معاً ويتفوّه بأعذب الكلمات وأرقّها، وسأتعزّى ويهدأ روعي وسينجذب إليه قلبي ويمتلك روحي فأؤمن بإلهه، لكن هذا العجوز؟ ما قيمته بالنسبة إليّ؟ ما قيمتي بالنسبة له؟ لست أكثر من واحد من جمهور البائسين التاعسين. واحد من بين أشباح كثيرة رآها. وما عليه إلاّ أن يضيف شخصاً آخر إلى قائمة مُغادري الحياة.

ربما كنت مخطئاً في طرده، إنه الصالح وأنا الطالح، وأسفاً، إنها ليست غلطتي فوجود المحكوم بالموت، هو الذي أفسد كل شيء.

ها هم جاؤوا لي بطعام، يظنون أنني بحاجة إليه، وجبة شهية منتقاة. دجاجة وأشياء أُخر معها. حسناً! حاولت الأكل بيد أني لم أستطع ابتلاع أول لقمة. لقد سقطت من فمي. كل شيء له طعم الصاب والعلقم في فمي.

٢٨

دخل عليَّ شخص، معتمر بقبعته ولم يلحظ وجودي. فتح مسطرة قياس وأخذ يقيس أبعاد الجدران من الأعلى إلى الأسفل وهو يتكلم بصوت عالي النبرات قائلاً بين فترة أخرى:

ـ هذا حسن.

ـ لا خير في ذلك.

سألت الديدبان عمن يكون، وكان يبدو أنه مهندس معماري من موظفي السجن.

ازداد اهتمامه بأمري فتبادل مع الحارس الذي كان يرافقه بضع كلمات ثم حدجني بنظرة وهز رأسه غير مهتم. وواصل كلامه بصوت ثاقب وهو يقيس الأبعاد.

عندما انتهى من عمله دنا مني وقال لي بصوته الحاد:

ـ يا صديقي سيكون هذا السجن بعد ستة أشهر أحسن بكثير مما هو الآن.

وكان يقصد بإيماءاته التي عملها أن يقول لي:

ـ لكنك لن تتمتع بهذا وهو أمر مؤسف.

وبدا كأنه ابتسم ابتسامة خفيفة. في تلك اللحظة خُيِّلَ لي أنه يداعبني ممازحاً كما يداعب المرء عروساً صغيرة يوم زفافها.

لكن سجّاني وهو جندي قديم وأشرطته تنمُّ عن طول خدمته تكفّل بالجواب فقال:

- سيدي ليس من العادة الكلام بصوت مرتفع في غرفة الموت.

خرج المهندس.

وأنا... بقيت هناك أشبه بواحدة من الحجارة التي كان يقيسها.

٢٩

وبعده حدث أمر من أسخف ما يمكن!

انتهت نوبة سجّاني العجوز فغادرني، أنا الأناني السمج! لم أصافحه أو أشد على يده. ثم حلَّ محله آخر. رجل برأس مفلطح، وعينين كعيني البقرة ووجه بليد ولولا ذلك لما انتبهت إلى وجوده. كنت وليت صهري الباب وأنا جالس إلى المنضدة. حاولت تبريد جبيني بيدي وجمع أفكاري المضطربة.

شعرت بربتة خفيفة على كتفي جعلتني أدير رأسي. كان الحارس الجديد الذي تُركت معه ولا ثالث بيننا. وإليك ما جرى بيننا، بمقدار ما أذكره:

ـ أيها المجرم، ألستَ رقيق القلب؟

أجبته:

ـ لا.

والظاهر أن جوابي الحازم المختصر بلبله وعلى كل، فقد استطرد متلعثماً:

ـ إن المرء لا يكون شريراً لأنه يريد الشر.

قلت له:

ـ ولِمَ لا؟ إن كان هذا كل ما تريد قوله فدعني وشأني، وإلاّ ما غرضك؟

أجاب:

ـ أستميحك العفو أيها المجرم، أريد أن أقول بضع كلمات فقط وهي: إن كان في مقدورك صنع الخير لرجل مسكين من حيث لا يكلفك شيئاً، أفلا تفعله؟

فهززت كتفي قائلاً:

ـ لا بد أنك جئت من (شارنتون)[٢٦]. إنك يا صاح اخترت أغرب وعاء لاختيار السعادة منه. مَن قال لك إني أستطيع إسعاد البشر؟

فخفَّض صوته واكتسى وجهه بمسحة من الغموض والخفاء لم تنسجم قط مع سيمائه البليدة:

ـ أجل أيها المجرم، سعيد ومحظوظ! كل هذا يمكنك عمله. أصغ إليَّ، إني شرطي فقير، والخدمة صعبة والراتب قليل وأنا أحب سباقات الخيل، وهذا ما قادني إلى شفا الخراب. صفوة القول أنني صرت أشتري بطائق اليانصيب لموازنة الخسارة. على المرء أن يقوم بأي عمل يأتيه من الكسب، وإلى الآن وسوء الحظ

---

(٢٦) هو مارستان مشهور للمجانين في فرنسا يضرب به المثل فيقال «جاء من شارنتون» كما يُقال «مر فلان بمرسيليا» أي أنه كثير الكذب لاشتهار أهالي المدينة بالكذب (المعرب).

يلازمني، أسحب دائماً الأرقام الخاسرة. حاولت الوصول إلى الرابحة عبثاً. اشتريت رقم (٧٦) فكان رقم (٧٧) الرابح، حاولت مراراً وتكراراً فكنت الفريق الخاسر. صبراً قليلاً لو سمحت فقد شارفت النهاية، هنا الآن فرصة عظيمة لي. يظهر لي وأرجو العفو يا مجرم ـ أنك ستسلم روحك هذا اليوم، وقد ثبت يقيناً أن الأموات الذين تُستَلُّ أرواحهم على هذا الشكل يعرفون مقدماً الأرقام الرابحة. أفتعدني أن تتجلى لي غداً مساءً مهما كانت الظروف وتعلمني بالأرقام الثلاثة الأولى الرابحة؟ ما قولك؟ إني لست بالذي يخاف الأشباح فلا تخش عليَّ من هذا، إليك عنواني: (ثكنات بوبين كور ـ الدرج أ ـ رقم ٢٦) وستجدني بسهولة في نهاية الممشى. ما رأيك؟ تعال مساء هذا اليوم إن وجدته مناسباً.

ما كنت لأجيب هذا الجحش لو لم تخطر ببالي فكرة مجنونة، فحالة القنوط الذي أنا فيه تجعل المرء يتخيل أنه قادر على كسر سلسلة حديد بشعرة رفيعة.

قلت ممثلاً دور المسخرة بأحسن ما يمكن أن يمثله مشرف على الموت:

ـ سأجعلك أغنى من الملك، سأجعلك قاروناً بشرط واحد.

فتح عينيه المتبلدتين وقال:

ـ أي شرط، أي شرط، أي شيء تريد أيها المجرم.

ـ سأمنحك أربعة أرقام بدل ثلاثة شريطة أن تبادلني ثيابك.

فهتف وهو يفك أزرار بذلته العسكرية:

ـ أجل، إن كان هذا ما تريد.

نهضت من كرسيي وأنا أراقب جميع حركاته. كان قلبي يشتد وجيباً، رأيت بعين الخيال هذه الأبواب أمام بذلة العسكري، ثم إلى الساحة ثم إلى الشارع مخلفاً (دار العدل) ورائي!

لكنه تلفت متردداً وقال:

ـ آه ألأجل أن تفر هارباً؟

أدركت أن جميع آمالي انهارت. ومع ذلك فقد قمت بآخر محاولة... محاولة عقيمة جداً، سخيفة جداً! قلت له:

ـ أجل، لكن ماذا يهم، إن الحظ قد واتاك.

فأوقفني:

ـ آه لكن لا، ماذا ماذا! عن أرقامي الرابحة؟ لن تكون رابحة إلاّ إذا لقيت حتفك.

حاولت أن أجذب عنان النفس وأكبح جماحها صامتاً، أشد يأساً من أي وقت، فاقداً كل أمل يراودني.

٣٠

أغمضت عينيَّ ووضعت راحتيَّ فوقهما، حاولت نسيان الحاضر في الماضي. وبينما أنا أحلم، قفزت ذكريات طفولتي وصباي وشبابي إلى ذهني إحداهما إثر الأخرى، رقيقة وادعة ضاحكة كجزر من الأزهار في خليج الآثام والشرور والأفكار المضطربة المائجة في رأسي.

إني لأرى نفسي صبياً مرة أخرى، تلميذ مدرسة ضاحكة الثغر جذلان لاعباً راكضاً منادياً رفاق المدرسة وأنا فوق ممشى طويل لتلك الحديقة النامية التي قضيت في أرجائها أولى سنواتي، كانت مقرّاً لأخوية دينية في الماضي تشرف بسقفها الرصاصي على قبة كنيسة «فل دي كراس» الكئيبة المنظر.

ثم رأيتني عائداً إليها بعد أربع سنوات وأنا بعد طفل لكن كثير الأحلام زاخر العواطف جياشها. هنا فتاة صغيرة في الحديقة المنفردة، فتاة إسبانية صغيرة بعينيها الكبيرتين وشعرها الجميل وبشرتها السمراء الحارة وشفتيها القرمزيتين وخديها الموردين. أندلسية عمرها أربع عشرة سنة كان اسمها (بيبا).

أشارت علينا والدتانا أن نجري بعيداً، لكننا أخذنا نتمشى،

أشارتا علينا بأن نلعب، لكننا تحادثنا، كنا طفلين في عمر واحد، ذكر وأنثى.

لم يدم جرينا ولعبنا وشجارنا معاً إلا سنة واحدة خاصمت «بيبا» على أحسن تفاحة في البستان، ضربتها لسبب عش طير، فانفجرت باكية فقلت:

ـ تستأهلين!

وذهب كل منا إلى أمه يشكو الآخر. فوبختانا ضاحكتين وأصلحتا ذات البين.

إنها الآن تستند إلى ذراعي وأنا جد فخور كثير الاعتزاز. سرنا ببطء وتكلمنا بصوت خفيض. تعمدت إسقاط منديلها، فبادرت إلى التقاطه، وارتجفت يدانا عندما تلامستا. كلمتني عن الطيور الصغيرة وعن الكوكب الذي يلوح لنا من بعيد، عن الشمس الحمراء الغاربة خلف الأشجار وأحياناً عن رفيقات المدرسة، عن ثوبها وشرائطها. تكلمنا عن أمور بريئة واحمرّ وجهانا معاً خجلاً.

لقد أصبحت الصبية امرأة! كان مساء يوم صيف ونحن في ظلال أشجار الكستناء في قلب الحديقة. بعد فترة صمت من الفترات التي كانت تكثر أثناء مسيرتنا، تخلّت عن ذراعي فجأة وقالت لي:

ـ ألا فلنجر!

إني لأراها الآن كما كانت ترتدي ثوباً أسود، حداداً على جدتها. لقد خطر لها خاطر صبياني فإذا «بيبا» تعود «بيبيتا»! مرة أخرى، قالت لي:

ـ ألا فلنجر!

وانطلقت تعدو أمامي بخصرها الأهيف الرشيق الشبيه بخصر النحلة وبقدميها الدقيقتين اللتين ظلتا تضربان رداءها وترفعانه إلى ما يلي الركبتين من رجليها. تبعتها وأنا أعدو وكان النسيم أثناء جريها يرفع بين آن وآخر بخنقها الأسود فيتاح لي أن أختلس النظر إلى ظهرها ببشرته السمراء النقية. كنت فاقد الصواب تماماً، أدركتها قرب بئر خربة فأحطت خصرها بذراعي جزاء فوزي وجعلتها تجلس على ربيئة معشوشبة فلم تقاوم، كانت تلهث وتضحك، أما أنا فقد تمسكت بأهداب الوقار، أخذت أرمق عينيها الدعجاوين من تحت أهدابها السوداء.

قالت لي:

ـ اجلس هنا، ما زال النهار مشرقاً لنقرأ قليلاً، أعندك كتاب؟

كان في جيبي المجلد الثاني من كتاب «رحلات سباللانزاني»، فتحته اعتباطاً وجلست إلى جانبها وأسندت كتفها إلى كتفي وبدأنا نقرأ كل واحد لنفسه بكل هدوء ـ الصحيفة نفسها. وكانت مضطرة أن تنتظرني قبل أن أقلب الصحيفة إذ لم يكن فكري يعمل بالسرعة التي يعمل بها تفكيرها. فتقول وتُعيد القول أنا ما أكاد أبدأ:

ـ هل انتهيت؟

ثم احتكّ رأسانا معاً واشتبك شعرانا وتقاربت أنفاسنا تدريجياً، وفجأة التقت شفتانا معاً.

عندما أردنا استئناف القراءة، كانت الكواكب قد انتثرت في كبد السماء.

وعندما رجعنا قالت:

ـ آه، يا أماه، يا أماه، آه لو رأيت كيف كنا نعدو!

أما أنا فلم أقل شيئاً.

سألتني أمي:

ـ يبدو ألاّ شيء تحدثتما به؟

كنت في جنة من جنان الفكر، أمسية سأظل أذكرها طول حياتي.

طول حياتي!

٣١

الآن دقت الساعة، لست أدري الساعة التي أعلنتها إذ لم أسمعها بوضوح، يظهر كأن صوت أرغن يلازم سمعي، إنما هو طنين آخر الأفكار.

في هذه اللحظة العصيبة عندما ضعت في ذكرياتي، أخذت أنظر إلى جريمتي مستهولاً؟ أريد أن أندم أكثر فأكثر. كان ضميري يبكّتني قبل الحكم عليَّ أكثر مما بكّتني بعده، أما عقبه، فلم يكن في رأسي متسع إلاّ لفكرة الموت، ومع ذلك فإني لراغب جداً في الندامة. عندما أحلم لحظة بحوادث حياتي، وآتي إلى سقوط السكين التي ستنهي تلك الحياة عما قريب، تتملكني القشعريرة كأنما هو شيء جديد لي.

عهد طفولتي السعيد، أيام شبابي المرحة! رداء ذهبي ذيوله مغموسة في النجيع. ثم يجري بين آن وآخر نهر من الدم: دمي ودم شخص آخر.

لو ذاعت قصتي هذه بتفاصيلها يوماً فلن يميل الفكر بقارئها إلى تصديق واقعة مثلها، سنة رهيبة هذه السنة، بدأت بجناية وكان ختامها حكم الموت بعد السنوات العديدة المزدانة بالعفة

والسعادة. سيبدو الأمر غير قابل للتصديق. آه وآه مع ذلك، إني لم أكن شريراً بوجود القوانين السيئة وأشقياء الناس. أواه. سأموت بعد ساعات معدودات، يا لتعسي حين أفكِّر بأني كنت حراً في مثل هذا اليوم قبل سنة، حراً بريئاً، أسير أيام الخريف تحت الأشجار فوق أوراقها المتناثرة على الأرض.

٣٢

في هذه اللحظة بالذات، هنالك في الدور المجاورة لدار العدل وساحة غريف، في كل باريس إن شئت الواقع، تجد رجالاً يذهبون إلى مقر أشغالهم الرسمية، يتسامرون ويتضاحكون، رجالاً يقرأون الصحف ويفكرون في أعمالهم، تجاراً يعقدون صفقات، صبايا يهيئن فساتينهن لحفلة رقص في هذا المساء، أمهات يداعبن أطفالهن!

٣٣

أذكر في أحد أيام صباي أني ذهبت قاصداً رؤية ناقوس نوتردام الأعظم. فبعد أن ارتقيت الدرج الحلزوني المظلم وجاوزت المقصورة المتداعية الموصلة ما بين البرجين، انتابني دوار لأني رأيت باريس كلها تحت قدمي، ما إن دخلت القفص المبني بالحجر والخشب الذي عُلِّق فيه الناقوس الضخم بمدقته التي تزن قنطاراً. تقدمت بحذر على الألواح المتخلخلة وشاهدت من بعيد الساعة التي بلغت شهرتها أقصاها عند أطفال باريس وبالغيها على حد سواء، ناظراً بشيء من الخوف ـ إلى الصندوق الذي يغلفها ويحيط بها بجوانبه الشديدة الانحدار وهو عند مستوى قدمي. كنت بين آن وآخر أسترق النظر إلى نوتردام وساحة بارفي وإلى الناس، كما يسترق الغراب الطائر نظره ـ على حد شائع القول ـ فأرى الأخيرين يسيرون وهم أشبه بالنمل، وفجأة بُدئ بقرع الناقوس الأعظم، فشاع في الفضاء رنين عميق جعل البرج الثقيل يميد ونفرت الألواح الخشبية من العرائض المثبتة على الأرضية. كاد الصوت يلقي بي بعيداً وترنحت وبالكاد أفلحت في إنقاذ نفسي من السقوط بزلل قدمي على الجوانب الشديدة

الانحدار للصندوق المضلع. انبطحت مرعوباً على الألواح الأرضية متشبثاً بها بكلتا ذراعي وقد حبست تنفسي وأمسكت لساني والطنين الرهيب يدوي في أذني، وإلى تحتي مباشرة، تلك الهاوية، تلك الهوة الفاغرة العميقة يسير فيها جمهور من الناس رائحين غادين باطمئنان وسلام.

يبدو كأني الآن في برج الناقوس مرة أخرى، كل شيء يبدو ليس وهو يدور دوراناً سريعاً مربكاً، إنه أشبه بصوت ناقوس يدق في دماغي، يكتنفني صوته من سائر جهاتي، لم أعد قادراً بعد الآن على إدراك معنى الحياة الهادئة المطمئنة التي خلفتها ورائي، الحياة التي يحياها الناس الآخرون وهم بعيدون جداً عن فم الهاوية الفاغر.

٣٤

إن بهو المدينة بناء في مظهره طِيَرة وشؤم بسقفه الحاد الميلان وبرج ساعته الصغير ذي الشكل الغريب بواجهته البيضاء، بطوابقه المشادة فوق أعمدته الطويلة، بنوافذه الألف، بدرجاته المهترئة، بطاقيه الواحد عن اليمين والآخر عن الشمال. وعلى امتداده تنداح ساحة غريف المنفِّرة، بواجهة قد بليت على مرور الزمن، بدرجة من القذارة حتى لتبدو سوداء في نور الشمس، تتدفق الشرطة من أبوابه، من كل منفذ فيه ولا كالسيل أيام تنفيذ أحكام الموت. ويرقب المجرم وهو يُساق إلى المقصلة بكل نوافذه، أما ساعتها التي تنبئ بموعد التنفيذ، فتبقى في الليل لامعة على غرة جبين واجهتها القاتمة.

٣٥

إنها الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة.

ما أحس به في الحال الحاضر هو هذا:

«ألم لا يُطاق في الرأس، شعور بالبرد القارس في خصري، جبيني يحترق احتراقاً كلما قمت أو انحنيت، يبدو لي كأن سائلاً يتحرك في رأسي فيجعل دماغي يصطدم بجهة من قحف رأسي، اعترتني حالة تشنج عصبي فصار القلم يسقط من يدي كأنما يقذف بقوة صدمة كهربائية، عيناي تحترقان كأنما هما سحابة دخان، أشعر بآلام في مرفقي».

ساعتان أخريان وخمس وأربعون دقيقة، ويتم شفائي.

٣٦

يقولون إنه شيء بسيط، والمرء لا يلحقه ألم منه، وإن النهاية ستكون لطيفة، سهلة جداً فآه! لكن ما هذه عذابات الأسابيع الستة؟ نزاع الموت الذي يمتد يوماً بطوله؟ ما هي آلام ذلك اليوم الفرد بين الأيام، يمر بأبطأ ما يمكن وبأسرع من البرق الخاطف؟ ما هذا سلم التباريح المؤدي إلى المقصلة؟ إنها ليست شيئاً فيما يبدو.

في الظاهر إنها ليست كرباً وآلاماً، ليس هناك تشنجات مؤلمة حيث يعتصر الدم قطرة، أو حيث ينطفئ نور الفكر خاطرة بعد خاطرة. بعد كل ذلك، أهم متأكدون أننا لا نتألم، مَن أخبرهم؟ أسمِعَ أحد أن رأساً وقف على حافة المنصة وهو يشخب دماً وصاح في الجمهور المحتشد:

ـ إنه لا يؤلم؟

أهنالك ميت ذُبح بهذه الطريقة بُعث من عالم الأموات وجاء يشكرهم بقوله:

ـ إنه اختراع مدهش فلا تهملوه، جهاز القتل، عظيم رائع حقاً.

أفعلَ ذلك روبسبير، أفعلَ ذلك لويس السادس عشر[٢٧]؟

كلا لم يحدث شيء من هذا القبيل، فالأمر ينقضي في أقل من ثانية، هلاّ وضعوا أنفسهم مكانه في اللحظة التي تهوي السكين الثقيلة فتشق الجلد وتقطع العروق وتكسر الفقرات... نصف ثانية لا غير! نصف ثانية وينتهي الألم... يا للفظاعة!

(٢٧) كلاهما قُطع رأسه بالمقصلة.

٣٧

شيء غريب، لكني بقيت أفكِّر «في الملك»، عبثاً أحاول طرد هذا من فكري فثمَّ صوت يردد في أذني:

ـ في هذه المدينة بالذات، في هذه الساعة نفسها، وليس ببعيد من هنا يوجد رجل لديه هو الآخر حراس على كل باب، رجل بين الناس هو المفرد العلم. إنه مثلك بفارق واحد، هو سام بقدر ما أنت سافل، كل حياته ساعة بعد ساعة، مجد سؤدد وسعادة وفرح وسكر، كل مَن حوله يحبه ويبجِّله، أعلى الأصوات تنخفض بحضرته إلى حد الهمس، وأسمى الرؤوس تطاطئ أمامه، ليس فيه مما تتملاه العين غير الذهب والحرير، إنه في هذه الدقيقة قد عقد مؤتمراً مع وزراء دولته حيث كل واحد منهم لا يخالف له أمراً أو إنه يفكِّر بصيد الغد أو بحفلته المسائية الراقصة، متأكداً أن العيد آت، تاركاً للآخرين تدبير أمر مسراته، أجل إن هذا الرجل مخلوق من لحم ودم مثلك تماماً، في هذه اللحظة بالذات قد تتلاشى المقصلة الرهيبة. فهو قادر على إعادة الحياة إليك، إعادة الحرية، الثروة، الأسرة... بمجرد كتابة اسمه ذي الأحرف

السبعة بقلمه في ذيل قصاصة من الورق أو يكفي أن تمر مركبته الملكية بعربتك مصادفة. وإنه لرحيم رؤوف، أَوَثَمَّةَ فعل خير يؤديه أَجَلُّ من هذا؟ مع ذلك فلن يحصل شيء من هذا القبيل أبداً.

٣٨

أواه، لا بأس! يجب على المرء أن يُظهِر الشجاعة أمام الموت. ألا دعنا نفكر في هذه الخاطرة الشنيعة ونقابلها وجهاً لوجه غير هيّابين. ألا دعنا نسأل أنفسنا: ماذا تعني؟ فلنتحرَّ حقيقتها الخالصة، فلننظر إليها من كل جهة وزاوية لنحل هذا اللغز المعمّى. لنسترق النظر إلى القبر مقدماً. يخيِّل لي أنه حالما تغمض عيناي إغماضتهما الأخيرة، سأرى نوراً وهاجاً، وهوة ذات نور ساطع حيث ستجول روحي فيها هائمة إلى ما لا نهاية. يخيل لي أن السماء ستصير كتلة من نور وأن الكواكب ستبدو فيها بقعاً سوداء بدلاً من شكلها الطبيعي أي رُصيعات من الذهب على قطيفة سوداء ـ إنها ستبدو خلاف ذلك: بقعاً سوداء في حقل وهاج من الذهب.

ونظراً لكوني خاطئاً شقياً، فربما سأدخل جُوناً قبيحاً عميقاً للغاية، ذا جوانب مجللة بالسواد، حيث سأهوي، سأظل أهوي إلى ما لا نهاية، مشاهداً شخوصاً متحركة غريبة في الظلام الدامس.

أو ربما سأجد نفسي ـ عندما أستيقظ بعد سقوط السكين ـ

منبطحاً على سطح مستو رطب أَدُبُّ زاحفاً في الظلام، متقلباً مرة بعد أخرى كالرأس المتدحرج.

يُخيَّل لي أنه سيكون ثمَّ ريح زفون تدفعني بعيداً، فأصطدم هنا وهناك برؤوس متدحرجة مثلي، سيكون هنا وهناك برك ومجار من سائل غريب حار. سيكون كل شيء أسود، فترسل عيناي طرفهما فلا تريان غير السماء القاتمة، الضاغطة بطبقتها الكثيفة الواحدة فوق الأخرى، وعلى مسافة بعيدة جداً ترتفع أقواس عظيمة من الدخان أشد سواداً من الظلام الضارب أطنابه. سترى عيناي شرارات حمراء صغيرة ـ تسبح في الليل ـ يتضح عند اقترابها أنها طيور من نار.

وستكون الحال على هذه الوتيرة إلى أبد الآبدين. سيكون أيضاً ـ في أوقات مخصوصة ـ اجتماع الأموات القادمين من ساحة «غريف» ـ اجتماع في ليالي الشتاء المظلمة في محل معيّن. ستكون جمهرة من الشخوص الشاحبة أوجههم، الملطخة جسومهم بالنجيع وأنا من بينهم. ولكن يكون ثَمَّ قمر، وسنتكلم همساً. سيكون (بهو المدينة) هناك أيضاً بواجهاته التي قرضتها الديدان بحافة سقفه الحادة الشبيهة بالموسى، ووجه ساعته الذي كان قسّاً علينا جميعاً. وفي الميدان ستكون المقصلة الجهنمية منصوبة حيث سيقوم الشيطان بإطاحة رأس الجلاد، في الساعة الرابعة صباحاً. وسنقوم نحن بوظيفة الجمهور المتفرج.

من المحتمل أن يكون هذا الذي سيحصل فعلاً. لكن إذا بُعث الموتى أحياء فبأي شكلٍ سيُبعثون؟ ما الذي سيتركون من

جسومهم؟ أي جزء سيختارون، مَن سيكون الشبح؟ الرأس أم الجذع يا ويحي! ماذا سيفعل الموت بأرواحنا، ما الذي سيأخذ؟ وما الذي سيعطى؟ أين سيضعه، هل يستعير أحياناً الأعين الحية لينظر بها إلى الأرض ويذرف منها الدمع باكياً؟

عليَّ بقسّ، قسٌّ يفهم كل ذلك! أريد قسّاً وصليباً ألثمه.

إلهي! إنها سواء دائماً!

٣٩

طلبت منهم أن يتركوني لعلّي أغفو. ألقيت بنفسي على الفراش، إنّ تدفق الدم إلى رأسي هو الذي جعلني أستغرق في النوم، إنه آخر يوم لي من هذا النوع.

- حلمت حلماً:

«حلمت بأن الوقت ليل، خُيِّلَ لي أني في غرفة مطالعتي مع صديقين لي لا أذكرهما بالضبط، وقد غادرتنا زوجتي إلى غرفة النوم الملاصقة فاستغرقت في النوم هي وابنتها.

صرنا نتكلم بأصوات خافته أنا وصديقاي، كلاماً كان يشيع فينا الرعدة. وفجأة خُيِّلَ لي أني سمعت لغطاً صادراً عن الغرفة الثانية، صوتاً رفيعاً غريباً غامضاً سمعته كما سمعه صديقاي، أنصتنا هُنيهة: كان أشبه شيءٍ بدوران مفتاح في قفل صدئ يحتاج إلى دهن، أو كرتاجٍ يندُّ منه صرير خافت. كان فيه شيء جعلني أرتعد واعترانا الوجل، فكّرنا في أن لصوصاً قد اقتحموا داري في هذه الساعة المتأخرة من الليل. عزمنا على معرفة الحقيقة فنهضت وتناولت شمعة وتبعني الصديقان واحداً إثر الآخر. ذهبنا إلى غرفة النوم المجاورة حيث امرأتي مع طفلتها نائمتين، ثم ولجنا غرفة

الجلوس فلم نجد شيئاً غير عادي حيث الصور إطاراتها الذهبية فوق ورق الجدار القرمزي. بدا لي أن الباب بين غرفتَي الجلوس والطعام لم يكن في وضعه الطبيعي، ولجنا غرفة الطعام وفتشناها، وكنت أول الداخلين، رأيت الباب المؤدِّي إلى الدرج مغلقاً كالعادة كذلك النوافذ، ولما صرنا قريبين من الموقد لاحظت أن باب خزانة المناشف مفتوح باتجاه الجدار بحيث شكّل زاوية مخيفة.

أدهشني ذلك، ظننا أن إنساناً يكمن خلف الباب، مددت يدي أريد إغلاق الخزانة فبدا كأنه ثابت في محله فجذبته بقوة فطاوعني بسهولة. وكشف عن عجوز صغيرة القدّ. يداها مرتخيتان وعيناها مسبلتان لكنها واقفة منتصبة كأنما هي بزاوية الجدار لاصقة.

كانت بشعة المنظر، إن شعر رأسي ليقفّ كلما تمثلتها في فكري. سألتها:

ـ مَن أنتِ؟

فلم تجب. فعاودت الكَرّة:

ـ مَن أنتِ؟

فلم تجب ولم تتحرك وبقيت عيناها مسبلتين. قال صديقاي:

ـ من الواضح أنها شريكة لأولئك الذين اقتحموا الدار بقصد السرقة ففرّوا عندما سمعونا قادمين. لقد نجحوا في الفرار وأخفت هي نفسها هنا.

سألتها مرة أخرى فلم تنبس بحرف ولم تتحرك ولم تفتح

عينيها، فدفعها أحدنا فسقطت كالجذع الخشبي قطعة واحدة أو كجثة ميت. أقمناها على رجليها وقام اثنان منا بإسنادها إلى الجدار عمودياً فلم تبدُ منها بادرة على حياة. صرخ أحدنا في أذنها فظلت ساكتة كأنها صماء، فعيل صبرنا، وبدأ الغيظ يحل محل الوجل وقال لي أحد الصديقين:

ـ ضع لهب الشمعة تحت ذقنها.

فقرّبت الذُبالة المشتعلة تحت ذقنها، ففتحت عينها نصف فتحة، عين فارغة! معتمة، تعافها النفس لا ترى شيئاً، أبعدت اللهب عنها وقلت:

ـ آها، أخيراً، ستجيبين الآن؟ أيتها العجوز الساحرة مَن أنتِ؟

أغمضت عينيها بصورة آلية، فقال الصديق الآخر:

ـ كرر، ولتكن قوية هذه المرة، الشمعة مرة أخرى، يجب أن تُحمل على الكلام حملاً!

وضعت النار تحت ذقن العجوز، وعلى حين غرّة أخذت تفتح عينيها ببطء ناظرة إلينا الواحد بعد الآخر ثم سقط رأسها بسرعة، وأطفأ زفيرها الجليدي الشمعة. في تلك اللحظة شعرت بثلاثة أسنان حادة تغوص في لحم يدي في الظلام.

استيقظت وأنا أرتجف، وأسبح في العرق البارد، كان القسّ الصالح جالساً على حافة فراشي يقرأ في كتاب صلوته، فسألته:

ـ أنمتُ طويلاً؟

فأجاب:

ـ كنتَ نائماً قرابة ساعة، لقد جيء إليك بطفلتك وهي تنتظرك في الغرفة المجاورة، لقد حِلتُ بينهم وبين إيقاظك.

هتفتُ:

ـ آه طفلتي الصغيرة، لقد جاؤوني بطفلتي الصغيرة.

٤٠

كانت بريئة جميلة موردة ذات عينين نجلاوين، إنها رائعة الحسن، ألبسوها ثوباً ناسبها للغاية.

تناولتها بين ذراعي ووضعتها على ركبتي، وصرت أُقبّلها من شعرها. لماذا لم تصحبها أمها؟

أمها مريضة، كذلك جدتها، وهذا أحسن. نظرت إليَّ بدهشة وتركتني أُلاطفها وأداعبها وأعانقها وأغمرها بالقبلات. لكن بقيت في الوقت نفسه تختلس نظرات قلقلة إلى مربيتها التي كانت تبكي في إحدى الزوايا. بالأخير صرت قادراً على مكالمتها فقلت:

ـ ماري صغيرتي ماري.

ضممتها بشدة إلى صدري الباكي وقد اختنق صوتي بالعبرات فندَّت منها صرخة صغيرة وقالت:

ـ آه، إنك يا سيدي.

إلهي، إنها لم ترني منذ سنة تقريباً، طفلتي المنكودة، لقد نسيتني، نسيت وجهي وصوتي لكن، مَن بعد يعرفني الآن، بهذه اللحية وهذه الثياب وهذا الوجه الشاحب، مَن يعرفني؟

من الآن زال من ذاكرتها الشيء الوحيد الذي كنت أريد العيش لأكونه، ماذا؟ لا أب بعد الآن؟ إنه لحكم عليك بأن لا تسمع هذه الكلمة بعد الآن، تلك الكلمة الصبيانية الناعمة العذبة التي لا يستخدمها الرجال: «بابا» فآه ثم آه! لو تسنّى لي سماع هذه الكلمة من هاتين الشفتين مرة واحدة فقط. هذا كل ما أطلبه لقاء السنوات الأربعين التي سيستلبونها مني. قلت لها وأنا أضع يديها الصغيرتين في راحتي:

ـ اسمعي يا ماري، أما عدتِ تعرفينني أبداً؟

نظرت إليّ بعينيها الجميلتين وأجابت:

ـ كلا.

فأعدت السؤال:

ـ انظري إليَّ جيداً. ماذا؟ ألا تعرفين مَن أكون؟

قالت:

ـ نعم أعرف أنك رجل.

واأسفاه، أن تحب من كل قلبك كائناً واحداً في العالم، تحبها حبي كله ويؤتى بها إليّ فتنظر إليّ وتتفرّسْ فيّ وتتكلم معي، وتحبني وهي تجهل مَن أكون؟ عازفة عن تعزيتي، أن تكون الوحيدة التي لا تعرف بأني في حاجة إلى ذلك لأني مشرف على الموت! سألتها:

ـ ألديك «بابا» يا ماري؟

فأجابت طفلتي:

ـ نعم يا سيدي.

ـ حسن، وأين هو؟

رفعت عينيها الواسعتين دهشة وقالت:

ـ أوه، ألم تعلم؟ إنه ميت.

وانفجرت تبكي. كدت أدعها تفلت من يدي فتسقط على الأرض.

هتفتُ:

ـ أميت هو! أتعرفين يا ماري ما هو الموت حقاً؟

فأجابت:

ـ نعم يا سيدي، إنه في التراب، وفي السماء أيضاً.

واستطردت موجهة الكلام لنفسها:

ـ إني أصلي لأجله صباحاً ومساء على ركبتي أمي.

لثمت جبينها وقلت:

ـ ماري، اتلي عليَّ صلاتك.

ـ لا أستطيع يا سيدي، فالصلاة ليست للنهار. تعال إلى بيتنا مساء اليوم وسأصليها لك.

كان في هذا الكفاية فأوقفتها:

ـ ماري، أنا «بابا».

فصاحت «آه»! فاستطردتُ:

ـ ألا تريدين أن أكون أباك؟

فأزورت الطفلة عني.

ـ كلا، فأبي كان أجمل منظراً منك بكثير.

أمطرتها بالقبلات والدموع، فحاولت الإفلات من ذراعي صارخة:

ـ لقد آلمتني بلحيتك.

أجلستها على ركبتي ثانية وعيناي تنتهبانها انتهاباً، ثم سألتها:

ـ ماري، أتعرفين القراءة؟

فأجابت:

ـ نعم، إني أعرف القراءة جيداً، لقد علمتني «ماما» قراءة رسائلي.

قلت لها وأنا أشير إلى ورقة كانت تدعكها يدها الصغيرة:

ـ حسناً جداً، أسمعينا قراءتك شيئاً.

فأحنت رأسها الجميل وقالت:

ـ إني أعرف قراءة الحكايات فقط.

ـ لا بأس حاولي هيا اقرأي.

ففضت الورقة وبدأت بالتهجئة وهي تؤشر بأصابعها.

ـ أ... و... أو... ق... أوق... ف... أوقف.

خطفتها من يدها، كانت تقرأ عليَّ الحكم بموتي. لقد ابتاعت مربيتها الصحيفة بفلسين. بينما كلفني أنا أكثر من هذا. إن

الكلمات لتقصر عن التعبير عن شعوري. أخافها عنفي، فبدأت تبكي. وفجأة قالت لي:

ـ أعد لي ورقتي إني سألعب بها.

سلمتها لمربيتها وقلت لها:

ـ خذيها عني.

تهاويت على كرسي حزيناً قانطاً. الآن فليأتوا، إني لا أترك شيئاً ورائي بعد هذا، لقد انقطع آخر حبال فؤادي، إني مستعد لكل أمر.

٤١

ما أرأف القسّ والسجّان، خُيِّلَ لي أن الدموع طفرت من عيونهما عندما علما أنهم أخذوا طفلتي عني.

لقد انتهى كل شيء، وعليَّ الآن أن أستجمع أفكاري وأفكِّر جدياً بالجلاد، بالعربة، بالشرطة، بالجمهور المنتظر على الجسر وفوق الأرصفة. لن أفكِّر فيما سيحل بي في ساحة غريف، تلك التي يمكن أن ترصف بالرؤوس التي رأتها تسقط. الظاهر أنه ما يزال عندي ساعة أخرى لترويض نفسي على ذلك كله.

٤٢

سيضحك الكل، ويصفقون ويهتفون. من بين جميع هؤلاء، رجال أحرار لم يعرفوا سجاناً يأتون وهم متلهفون جداً إلى منظر التنفيذ، من بين جميع الرؤوس التي تغطي الساحة سيوجد أكثر من واحد قد كُتب له في لوح القدر أن يتبع رأسي إلى السلة الحمراء عاجلاً كان ذلك أم آجلاً. أكثر من واحد ممن جاء للتطلع إلى قص رأسي سيأتي دوره هو الآخر. هؤلاء الأحياء الذين خُتم على مصائرهم، لهم مكان معيّن في ساحة غريف، بقعة قاتلة، مركز جذب لا محيص عنه، فخ منصوب فاغر الفم، إنهم يدورون ويدورون حتى يبلغوه.

٤٣

صغيرتي ماري!

لقد أخذوها عني لتلعب. إنها لتنظر إلى الجماهير من نافذة العربة وقد امَّحى كل شيء من فكرها عن «السيد». لعلّني أملك وقتاً كافياً لأكتب إليها بضع صفحات، تقرأها يوماً ما ـ بعد مرور خمسة عشر عاماً على هذا اليوم ـ فتنخرط في البكاء.

أجل فمن الضروري أن أخبرها بقصتي، ولماذا كان الاسم الذي خلعته عليها هو اسم دموي.

٤٤

قصتي

ملحوظة من الناشر:

«لم نستطع العثور على الأوراق التي دوّنت فيها القصة المذكورة، ربما لم يتيسر للمحكوم بالموت الوقت الكافي لكتابتها كما تشير الأوراق التالية. لقد جاءته فكرة تدوينها متأخرة.»

٤٥

أوتيل دي فيل. فأنا هنا إذن؟ الرحلة الشقية شارفت الختام والمحل ليس ببعيد، حيث اجتمع تحت النافذة خلق كثير من الغوغاء يتشوفون ويرقبون. عبثاً إذن كان تجلدي ولمُّ أطراف شجاعتي، عبثاً كان ارتعادي وخوفي، فالأمر سواء ما دام خانني فؤادي. وعندما شاهدت الجذعين الحمراوين يلوحان فوق رؤوس الجماهير يتوسطهما المثلث الأسود في القمة وقد أقيما على المنصة بين زوج من أعمدة النور على الرصيف خانتني شجاعتي. توسلت إليهم أن أدلي بوصية أخيرة، فنقلوني إلى هنا وذهبوا ليحضروا المدعي العام. إني في انتظاره، ومهما يكن فقد كسبت وقتاً قصيراً.

ها هو ذا قادم.

دقت الساعة الثالثة فجاؤوا وأخبروني بأن الوقت قد أزف. اقشعرَّ بدني رغم أني لم أفكِّر في شيء ما عداه، طوال ست ساعات. ستة أسابيع... ستة أشهر... ومع ذلك فقد أثَّر فيَّ كأني لم أتوقعه أو لست معه على موعد. أخذوني وساروا بي في الممرات، نزلوا بي درجات عدة، دفعوني خلال أبواب صغيرة في

الطابق الأرضي، ثم أدخلوني غرفة معتمة صغيرة محدودبة السقف مضاءة بنور ضئيل، في هذا اليوم المطير الكثير الضباب، وضع لي كرسي في وسطها وأشاروا عليَّ بالجلوس، فأطعت.

كان بعض الأشخاص واقفين قرب الباب بحذاء الجدار إلى جانب القس والشرطة وكان يوجد أيضاً ثلاثة رجال: الأول وهو الأطول والأكبر، كبير الجثة أحمر الوجه يرتدي سترة طويلة سوداء وقبعة مثلثة الأطراف عتيقة، كان هو. . . بعينه، كان الجلاد خادم المقصلة، أما الباقيان فمساعداه. ما كدت أجلس حتى زحف هذان الاثنان بخفة القطط نحوي، وعلى حين غرة شعرت بالحديد البارد يمر خلال شعري وأخذ لسانا المقص يلمسان أذني، جُزَّ شعري على كل وتساقط على كتفي خصلاً كان الجلاد ينفضه عنهما بلطف بيده الخشنة، وكان الكل حولي يتحدثون همساً وبأصوات محتوفة، أما الأصوات في الخارج فقد أخذت تتعالى في الفضاء وتدوّي كهدير الأمواج، ظننته لأول وهلة النهر ومن انفلاق الضحكات أدركت أنه الجمهور.

كان شاب في مقتبل العمر قريب من النافذة يكتب في دفتر ملحوظات فسأل أحد السجّانين: ما هذا الذي يفعلونه؟ فأجابه:

ـ إنه تواليت المحكوم بالموت.

فعرفت أنها ستخرج على الناس في صحف الغد. وفجأة خلع أحد المساعدين سترتي عني وأمسك الآخر بكلتا يدي وكانتا متدليتين باسترخاء على جانبي وشدّهما وراء ظهري وشعرت بعقد

الحبل يلتف حول معصمي المتلاصقين ببطء وفي الوقت نفسه فك الآخر ربطة عنقي، ثم تردد لحظة أمام قميصي الكتاني الأبيض وهو الشيء الوحيد الذي بقي لي من الأيام الخالية، ثم بدأ يقص ياقته.

في أثناء هذه الاستعدادات الفظيعة، وببرودة الحديد وهو يلمس عنقي ارتعد كوعي فندَّت منّي آهة مخنوقة فارتعشت يد الجلاد وقال لي:

ـ سيدي، عفواً! هل آلمتك؟

إن الجلادين قوم في غاية اللطف والظرف.

كان هتاف الجمهور يزداد ارتفاعاً في الخارج.

قدم لي الرجل الضخم الجثة ذو الوجه المشطب بالبثور، منديلاً منقوعاً في الخل لأشمَّه. قلت بصوت جاهدت جهاد المستميت لأجعله ثابتاً:

ـ شكراً، لا حاجة لي بذلك إني بخير.

ثم انحنى أحدهم وشدّ وثاق رجليَّ معاً بحبل رفيع طويل لا يسمح لي إلاّ بخطوات قصيرة، ثم وصل هذا الحبل بالحبل الذي يشدّ معصمي، ثم طرح الرجل الضخم سترتي على ظهري وعقد كمّيها معاً تحت ذقني. لقد انتهى عمل ما كان يجب أداؤه.

ثم جاء القس بالصليب وقال لي:

ـ فلنذهب يا ولدي.

أمسكني المساعدان من مرفقيّ وأنهضاني. فسرت، كانت

خطوات مضطربة، مرتعدة كأنما في كل ساق ركبتان. في تلك اللحظة فُتح مصراعا الباب الخارجي، صرخة وحشية! الهواء البارد، الضياء الباهر، باغتني من الظل. عند نهاية الممر المظلم رأيت فجأة من خلال زخات المطر آلافاً من أوجه الناس وهي تزعق وتتزاحم وتتلاطم كيفما اتفق على المدراج الرئيسية للساحة، وعلى اليمين بمستوى باب المدخل الرئيسي كان صف من الفرسان على ظهور الخيل، لكن بسبب انخفاض الباب لم يسعني إلاّ رؤية أقدامهم الأمامية وصدورهم، وإلى الأمام كان رهط الشرطة شاكّي السلاح بكامل أعتدتهم الحربية. وشاهدت إلى الشمال، قفا عربة أُسند إليها سلم. صورة بشعة إطارها فتحة باب السجن.

لهذه الدقيقة بالذات كنت أستجمع كل شجاعتي، خطوت ثلاثاً، ثم وقفت على عتبة باب السجن، صرخ الجمع الحاشد:

ـ ها هو! ها هو! ها إنه قادم أخيراً!

وأخذ القريبون مني يصفقون لي. إن الملك الذي يتمتع بحب شعبيّ لا يلقى ما ألقاه من الحفاوة.

كانت عربة عادية، شُدَّ إليها حصانان هزيلان، وقد اعتلاها حوذي يرتدي بتية زرقاء ذات رقع حمراء شبيهة بالبتية التي يرتديها الفاكفاتيون جوار منطقة «بيستر». وركب الرجل الضخم ذو القبعة المثلثة أولاً.

فصاح الأطفال وهم متعلقون بالدرج:

ـ نعمت صباحاً يا سيد شمشون.

ثم تبعه مساعداه. فصرخ الأطفال ثانية:

ـ مرحى يا ثلاثة!

جلس الاثنان على المصطبة وجاء دوري فصعدت بقدم راسخة نوعاً ما. وقالت امرأة كانت واقفة خلف الجنود:

ـ إن خطاه ثابتة!

هذا المدح القاسي بثَّ في نفسي الشجاعة. جاء القس وأخذ مكانه إلى جانبي. أُجلست على المقعد الخلفي مستديراً الخيل. ارتعدت عندما أدركت سرّ المعاملة اللطيفة. إن فيهم بعض شعور إنساني على كل.

أخذت أنظر إلى كل ما يحيط بي: شرطة من الأمام، شرطة من الوراء ثم الجمهور، ثم الجمهور مرة أخرى، ثم الجمهور أيضاً. بحر من الرؤوس يلتطم في تلك الساحة. كانت كوكبة من فرسان الشرطة بانتظاري عند مدخل الساحة. أعطى ضابط أمراً، فبدأت المركبة بموكبها تتقدم إلى الأمام كأنما تحتثها زعقات المتجمهرين.

اجتزنا الباب، وفي اللحظة التي استدارت المركبة باتجاه «بون أوشانج» ارتجَّت الساحة بصيحة واحدة من الرصيف حتى السقوف، فردَدت الأزقة والجسور صداها فزلزلت الأرض زلزالها، كانت حضيرة الفرسان تنتظر، فانضمت إلى الموكب.

صرخت آلاف الحناجر في وقت واحد:

ـ اخلعوا قبعاتكم! اخلعوا قبعاتكم! مثلما تفعلون للملك؟

فضحكت ضحكة مريعة وقلت للقس:

ـ لهم خلع القبعات، لي خلع الرأس.

وسارت الخيل بنا بطيئة.

كان جو الرصيف مضمّخاً بالعبير الزاكي، فاليوم هو يوم سوق الأزهار، لكن بائعات الزهر تركن أكشاكهن للتمتع برؤيتي.

وفي الجهة المقابلة للبرج المربع الذي ينهض قائماً في زاوية دار العدل، كان يوجد بعض الحانات والمشارب وقد ازدحمت مداخلها بالمتفرجين ـ وجُلُّهم نساء وقد بدوا مسرورين بأمكنتهم الجيدة، إنه ليوم جم الربح لأصحاب الحانات، إذ كانوا يؤجرون موائد ومقاعد وتخوتاً خارج الدكاكين وكلها مزدحمة بالمتفرجين، هؤلاء المتاجرون بالدم البشري كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم:

ـ مَن يريد محلاً؟

اجتاحني الغضب على الجمهور وشعرت برغبة في المناداة:

ـ مَن يريد محلي؟

مهما يكن، فقد سارت العربة إلى الأمام وفي كل خطوة كان يزحف خلفها الجمهور كالجيش اللجب، كنت أراه بعيني هاتين ينكفئ راجعاً لتتركز جموعه في الأمكنة الأخرى التي سأمر منها.

تطلعت ونحن نجتاز «بون أوشانج» خلفي إلى اليمين بمحض الصدفة، ثم تطلعت إلى الجانب الآخر من الرصيف عبر المنازل، إلى البرج الأسود المنتصب وحده والنقوش النافرة تغطيه وعلى قمته غولان جالسان في وضع جانبي. سألت القسّ دون أن أدري

لذلك سبباً عن اسم البرج، فأجاب الجلاّد:

ـ إنه سان جاك لابوشيري.

لم أتبيّنه من الضباب، نظراً إلى المطر الأبيض الذي كان يسقط رذاذاً فيخطط الجو بنسيج شبكي كخيوط العنكبوت. لم يفت ملاحظتي أي شيء مما كان يحدث حواليَّ، وكل حادث بسيط يأتي وهو يجرّ عذابه معه، إن الكلمات لتقصر عن وصف مشاعري.

عندما بلغنا نصف طريق «بون أوشانج»، تجلّت الساحة واسعة مزدحمة بشكل ألجأنا إلى التقدم بأعظم ما يمكن من الصعوبة. تملّكني الرعب، كنت خائفاً من الانهيار العصبي، قليل فقط من الكبرياء! ثم حاولت نسيان نفسي، جرّبت أن أكون أعمى أصم تجاه كل ما يحدث حولي ما عدا القسّ الذي كنت لا أكاد أسمع كلماته من شدة الجلبة والصراخ، أخذت الصليب ولثمته وقلت:

ـ ارحمني يا اللَّه!

حاولت إضاعة نفسي في هذا الخاطر لكن كل أرجحة من العربة الثقيلة كانت ترجّني رجّاً، ثم شعرت فجأة ببرد قارس لا يوصف، نقع المطر ثيابي وبلل جلدة رأسي الحليق. سألني القس:

ـ أترتجف من البرد يا ولدي؟

أجبته:

ـ نعم!

ـ ليس من البرد فقط وأسفاه!

أخذت بعض النسوة يتحسرن عليَّ لصغر سنّي، وعندما أشرفنا على خاتمة المطاف، بدأت وفي استدارة فوق أفق ساحة الرؤية والسمع كل هذه الأصوات كل هذه الرؤوس من النوافذ والأبواب ومداخل الدكاكين، على سواعد المصابيح وأعمدتها، هؤلاء المتفرجون النهمون القساة، هذا الجمع الذي يعرفني كله، لا أعرف منه أحداً. هذا الشارع ببلاطه الحجري وبحر الرؤوس البشرية. كنت فاقد الوعي، مخدراً أعمى، إن أفظع ما في الأمر هو وطأة هذه الأعين التي لا تحصى وهي تحدق فيك.

صرت أتمايل في مقعدي ذات اليمين وذات الشمال، ولم أعد أهتم بشيء حتى بالقسّ وصليبه.

في هذا الطنين الذي يلازم أذني، ما عدت أميز صياح التفجع من هتاف الشماتة والسرور من التألم، الأصوات من الضوضاء، كان كل ذلك يصل إلى رأسي هديراً صاخباً كرجع صدى لطرقات على كاسة نحاس، كانت أنظاري تقرأ بصورة آلية لافتات الدكاكين.

مرة واحدة فقط حملني شعور استطلاع تائه أن أدير رأسي وأنظر في الاتجاه الذي نقصده. هذا الشعور هو البقية الباقية من التحدي العقلي، لكن الجسم أبى وظل نحري مشلولاً كأنما أدركه الموت مسبقاً.

شاهدت عبر النهر أحد أبراج نوتردام وكان يبدو من تلك

المسافة مخفياً قرينه، إنه البرج الذي كان يرفرف فوقه العلم وكان ممتلئاً بعدد كبير من الناس وجدوا فيه للرؤية خير مكان.

سارت العجلة قُدُماً مارة بدكان بعد دكان، ولافتة بعد أخرى مكتوبة أو منقوشة أو مطلية، والناس يتضاحكون ويخوضون في الأوحال. أرخيت العنان للنفس تحلّق بعيداً حتى كأني في حلم، وعلى حين غرة انقطعت سلسلة الدكاكين المتسقة صفاً في زاوية الساحة، وبدا أن صوت المتجمهرين قد ازداد ارتفاعاً وحدّة وحماسة. وقفت العربة فجأة، ووقع نظري على المقصلة فخفّ القسّ إلى معونتي متمتماً:

ـ تشجع!

جيء بالسلّم ووضع خلف العربة، فقدّم القسّ ذراعه لي فنزلت ثم سرت خطوة ثم استدرت لأخطو ثانية لكني لم أستطع. شاهدت بين عمودي النور شيئاً قبيحاً فظيعاً.

واحرّ قلباه! إنه الواقع.

وقفت وأنا أترنح كأنما بعد صفعة ثم صحت صيحة واهنة:

ـ أريد أن أدلي بآخر رغباتي.

فجاؤوا بي إلى هذا المكان.

طلبت منهم أن يدعوني أدوّن آخر رغباتي، فأطلقوا يدي من الوثاق ولكن الحبل بقي هنا منتظراً أما الباقي... فهو تحت!

٤٦

حاكم صلح أو مدير شرطة أو حاكم لا أدري ما هي صفته ـ أقبل الآن. سألته عن العفو الذي طلبته متوسلاً إليه ويداي مضمومتان وأنا جاث على ركبتي أزحف عليهما، سألني بابتسامة كانت القاضية:

ـ أهذا ما تريد قوله لي؟

فأعدت القول «عفوي عفوي؟ أو باسم الرحمة أعطوني خمس دقائق أخرى!».

مَن يدري ربما سيأتي العفو. إنه لفظيع جداً أن أموت هكذا في شرخ الشباب. قد يأتي العفو في آخر لحظة كما حدث للكثير من أمثال هذه قبلاً. ومَن هو أخلق بالعفو مني؟ هذا الجلاد الشاحب الوجه ها هو يدنو من الحاكم ويخبره بأن التنفيذ يجب أن يتم في الساعة المرسومة. وها إنها أوشكت وإنه المسؤول عن كل تأخير فضلاً عن أن السماء تمطر وهناك خطر تطرق الصدأ إلى الآلة.

آه، الرحمة دقيقة أخرى، انتظروا العفو! أو سأدافع عن نفسي، سأنهش مَن يقترب مني نهشاً.

انكفأ القاضي والجلاد إلى الوراء. إني الآن وحدي، وحدي مع شرطيين.

تعساً لهم من أناس أشرار بأصوات، تلك الشبيهة بأصوات الضباع. مَن يدري؟ ربما تسنّى لي الفرار، ربما نجوت. آه لو جاءني العفو، ليس مستحيلاً أن لا أنال عفواً ألا تباً لهم من أوغاد شقاة.

يخيَّلُ لي أني أسمعهم وهم يرتقون الدرجات.

الساعة الرابعة

جاء في طبعة ١٨٨١ الفرنسية أن المخطوطة الأصلية للكتاب صدرت وفي حاشية الصفحة الأولى منها هذه العبارة «الثلاثاء ١٤ تشرين الأول سنة ١٨٢٨» كما جاء في ذيل آخر صفحة «ليلة ٢٥/٢٦ كانون الأول سنة ١٨٢٨ الساعة الثالثة صباحاً».

هذا الكتاب

محكوم بالموت!

ولِمَ لا؟ فالناس كلّهم محكومون بالموت. فما الذي تغيّر من وضعي إذن؟ ترى كم شخص وافته المنية وكان يتوقع أجلاً طويلاً مرسوماً معيناً؟ كم عدد أولئك الذين ذهبوا قبلي وكانوا يتطلعون إلى اليوم الذي سيسقط فيه رأسي؟ كم منهم سيموت اعتباراً من هذه الساعة وهم الآن أحياء يرزقون؟

ثم لماذا أريد أن أبقى حياً؟ خبز السجن الأسود والحساء الرقيق المجلوب بجفنات المحكومين، المعاملة الخشنة، المعاملة الوحشية التي تضعني خاضعاً لأوامر السجانين ومغاليقهم... هذا هو كل ما في وسع الجلاد أن ينتزعه مني... آه، ومع ذلك فالأمر فظيع!

مكتبة الفكر الجديد

ISBN 978-9933351502